دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد العاشر

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد العاشر

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
رابط بديل > mktba.net

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

توضيح

ينبغي لنا الإشارة إلى أنّ بعض المباحث التي كانت مطّردة في المجلدات السابقة ستغيب عن هذا المجلد وما سيليه من مجلدات. ومردّ ذلك إلى أنّ طبيعة السور القرآنية الكريمة التي غابت عنها تلك المباحث، لا تستجيب لدواعي بعض العناوين؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، فإنّ سورة قرآنية كريمة، لا تشتمل على معانٍ لغوية غامضة، أو لا يكتنفها شيء من التغاير في الفهم والتحليل، لا تحتاج إلى مبحث «المعاني اللغوية». وكذلك، فإن سورة قرآنية كريمة لا يتضمّن نصّها مجازاً، لا تستجيب، وفاقاً لنمط بيانها، إلى مبحث «المعاني المجازية». . . وقس على ذلك.

وغنيٌّ عن القول أنّ أصحاب المصادر والمراجع التي ارتكزت عليها هذه الموسوعة هم أهل معرفة ودراية، بل هم أهل الاختصاص في هذا الشأن؛ ولم يتركوا هذه المباحث سهواً أو نُشدَاناً لراحةٍ، أو تخفيفاً من عناء. وما كان لهم أن يغفلوها لو أنهم وجدوا ما يقتضيها؛ ناهيك من أنّ بعض المباحث قد استوفت أغراضها في آياتٍ متشابهات من سورٍ تضمنتها المجلدات السابقة. فصار الكلام عليها، في هذا المجلد وما يليه، من قبيل التكرار.

سورة التَغَابُن

٦٤

أهداف سورة «التغابن»(*)

سورة التغابن سورة مدنية، آياتها ١٨ آية، نزلت بعد سورة التحريم.

والتغابن بمعنى الغَبْن، لأن أهل الجنّة يغبنون أهل النار، ويأخذون أماكنهم في الجنّة. أي ينتصر أهل الجنّة في ذلك اليوم، لأنهم نالوا حقّهم مضاعفاً.

وقال جار الله الزمخشري: التغابن مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً، لنزول السُّعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء في منازل السُّعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء كما ورد في الحديث:

«ما من عبد يدخل الجنّة إلاّ ويرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلاّ ويرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة».

قال النيسابوري: «يجوز أن يفسّر التغابن بأخذ المظلوم حسنات الظالم، وحمل الظالم خطايا المظلوم؛ وإن صَحَّ مجيء التغابن بمعنى الغَبْن، فذلك واضح في حقّ كل مقصّر صرف شيئاً من استعداده الفطريّ في غير ما أعطي لأجله».

وقال الشيخ مخلوف: «يوم التغابن يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان».

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

مع السورة

[في الآيات ١ ـ ٤]، نجد آيات تذكر جلالَ الخالق المبدع، وتُصوِّر قدرة الله القدير.

١ ـ فهو سبحانه مالك الملك، وصاحب الفضل والنِّعَم، وهو القادر القاهر المتّصف بصفات الجلال والكمال، وقدرةُ الله لا حدود لها فهي محيطة بكلّ شيء، لمهيمنة على كلّ شيء، مدبِّرة لكلّ شيء، حافظة لكلّ شيء، لا يفتر عنها شيء، سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير.

والمؤمن يدرك آثار هذه القدرة، ويشعر بجلال الله وعظمته، وعلمه ووقايته، وقهره وجبروته، ورحمته وفضله، وقربه منه في كلّ حال.

٢ ـ وقد خلق الله الإنسان ومَنَحه الإرادة والاختيار، وميّزه بذلك من جميع الموجودات، وأرسل اليه الرسل وأنزل إليه الكتب ليساعده على الإيمان. ومن الناس من يهديه الله للايمان، ومنهم من يختار الكفر والجحود.

٣ ـ وقد أبدع الله خَلْق السماء فرفعها، وزيَّنها بالنّجوم، وخَلَق الأرض، وأودع فيها الأقوات والأرزاق، والجبال والبحار والأنهار؛ وخلَق الانسان في أبدع صورة وأحْسَنَ تركيبَهُ، حيث يجتمع فيه الجمال الى الكمال، ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل، ولكنّ الله، جلّ جلاله، متّع الجميع بكل ما يحتاجون إليه من الآلات الجسديّة، ومن المواهب المعنويّة، ومن الخصائص التي يتفوّق بها الإنسان على سائر الأحياء.

٤ ـ وقد أحاط علم الله، سبحانه، بالسماء والأرض والسر والعلن، والمؤمن يحسّ، من الله تعالى، إحاطة علمه به، ويشعر أنّه مكشوف كلّه لعين الله، فليس له سر يخفى عليه، وليست له نيّة غائرة في الضمير لا يراها، وهو العليم بذات الصدور.

وبهذه المعاني يستقرّ الإيمان في القلب، ويستقرّ تعظيم الله، سبحانه، والشعور بجلاله ورقابته.

أمّا الآيتان ٥ و ٦، فتُذَكّران بما أصاب مُكذِّبي الرُسل من الهلاك والدَّمار. لقد جاءتهم الرُسل بالآيات الواضحة، فاستكثروا أن يكون النبيّ إنساناً من البشر، وأعرضوا عن الهدى

فأعرض الله عنهم، وهو سبحانه غني عن عباده، محمود على نَعْمائِه.

و[الآيات ٧ ـ ١٣] تستعرض شبهة الكافرين في البعث وإنكارهم له، وتردّ عليهم بأنّ البعث حقيقة مؤكدة، ويتبع البعثَ الحسابُ والجزاء. والإيمان بالله ورسوله سبيل النجاة والهداية، فسيجمع الله المؤمنين والكفّار في يوم التغابن.

والتغابن تَفاعُل من الغُبْن، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم، وحرمان الكافرين من كلّ شيء منه، ثمّ صيرورتهم الى الجحيم؛ فهما نصيبان متباعدان، وكأنّما كان هناك سباق للفوز بكلّ شيء، لِيغبن كلّ فريق مُسابِقَه، ففاز فيه المؤمنون، وهُزِم فيه الكافرون.

إنَّ من آمن وعمل صالحاً له جزاؤه في جنّة الخلد والفوز العظيم، ومن كفر بالله وكذّب بآياته، له عقابه وخلوده في النار وبئس المصير.

وإنَّ من أصول الإيمان أن تؤمن بالقضاء والقدر، وأن ترى الله خالق كلّ شيء، وأن تفوّض إليه الأمر، وأن تحني رأسك إجلالاً لعظمته، وتسليماً لقضائه وقدره.

وطاعة الله وطاعة الرسول طريق الفلاح، والإعراض عن طاعتهما نذيرٌ بالعقاب، وليس هناك في الكون إلاّ إلهٌ واحدٌ، يتوكّل عليه المؤمن، ويتيّقن بوجوده، ويوحّده ويعظّمه، وذلك أساس العقيدة الإسلامية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾.

روابط الأسرة

تتّجه الآيات الأخيرة من السورة لبناء المجتمع، وتهذيب العاطفة، وتوجيه العلاقات الأُسَرية الوُجْهَة السليمة.

فالآيات الأولى من السورة شبيهة بالآيات المكّيّة في بناء العقيدة، وتأكيد معنى الألوهيّة، وبيان صفات الله وكمالاته؛ أمّا الآيات الأخيرة من السورة فتتّجه لبناء مجتمع سليم.

وفي تفسير مقاتل وابن جرير الطبري: أنّ الآية ١٤ نزلت في قوم كانوا أرادوا الإسلام والهجرة، فَثَبَّطهم عن ذلك أزواجُهم وأولادهم. وروى ابن جرير، عن عكرمة، أنّ رجلاً سأل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [الآية

١٤]، قال: هؤلاء رجال أسلموا فأرادوا أن يأتوا رسول الله (ص) بالمدينة، فلمّا أتوا رسول الله (ص) ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، همُّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفيها: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾.

فينبغي ألا تَشْغَل المكلّف زوجته ولا أولاده عن طاعة الله، وأن تكون أسرته لمرضاة ربّه، معينة على الصلاح والإصلاح. إنّ الله يمتحن الإنسان بالمال والولد، فالمؤمن يتّخذ ماله وسيلة لمرضاة ربّه ويجعل مِنْ ولده أثراً صالحاً؛ وعند الله الأجر الأكبر لِمَنْ أحسن استخدام ماله وولده في طريق الخير والإحسان.

روى الإمام أحمد: أنّ رسول الله (ص) كان يخطب، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثُران، فنزل رسول الله (ص) عن المنبر فحملهما، ووضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الآية ١٥]. «نظرت إلى هذين الصبيّين يمشيان ويعثران حتّى قطعت حديثي ورفعتهما».

وفي الأثر: الولد مَجْبَنة مَبْخَلة، أي يجعل والده جباناً وبخيلاً، رغبة من الأب في توفير الحماية والمال لولده.

والإسلام يهذّب الغرائز، ويُنَمّي الفطرة ويوجّهها الوُجْهة السليمة، فيأمر بالاعتدال في حبّ المال والولد، ويحذّر من الافتتان بهما، واذا طَلَبَتِ الزوجة أو الأولاد، ما يغضب الله فحذار من طاعتهما، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكلّ ما قد ترى تفنى بشاشتهُ
يبقى الإلهُ ويفنى الأهلُ والولدُ

وفي آخر السورة دعوة إلى تقوى الله قدر الطاقة والاستطاعة، وحثٌّ على الصدقة والإحسان، وتحذير من البخل والشحّ: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الآية ١٧]. وإن تقدموا صدقة للفقراء، وعملاً صالحاً في مرضاة الله، فإنّ الله يضاعف الثواب لكم إلى سبعمئة ضعف، ويصفح عن سيئاتكم، ويشكر لكم أعمالكم، وهو سبحانه شكور حليم. فالله صاحب الفضل والنِّعَم يطلب من عبده فضل ما أعطاه، ثم يشكر لعبده ويعامله بالحلم والعفو عن التقصير؛ ما أجمل الله وما أعظم حلمه، وما أوسع رحمته وفضله!

وفي الآية الأخيرة تظهر صفات الجلال والكمال، فهو سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي ما لا تراه العباد ويغيب عن أبصارهم. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم. فكلّ شيء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه، مدبَّر بحكمته؛ وهو العزيز الغالب، الحكيم في تدبير خلقه وصَرْفِه إيّاهم فيما يُصلحهم.

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة التغابن: بيان تسبيح المخلوقات، والحكمة في تخليق الخالق، والشكاية من القرون الماضية، وإنكار الكفّار البعث والقيامة، وبيان الثواب والعقاب، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة، وتضعيف ثواب المتّقين، والخبر عن اطّلاع الحقّ على علم الغيب في قوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «التغابن»(*)

. تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة التَّغابُن بعد سورة التحريم، ونزلت سورة التحريم بعد سورة الحُجُرات، ونزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة بدْر، فيكون نزول سورة التغابن في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في [الآية ٩] منها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وتبلغ آياتها ثماني عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار الكافرين، من المنافقين وغيرهم، بعذاب الدنيا والآخرة، ليدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيله؛ ولا شكّ في أنّ هذا الغرض قريب من الأغراض المقصودة من سورة «المنافقون» والسور السابقة عليها، وهذا هو وجه المناسبة في ذكر هذه السورة بعدها.

الإنذار بعذاب الدنيا والآخرة
الآيات [١ ـ ١٨]

قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ فذكر، سبحانه، تسبيح كلّ شيء له واختصاصه بالملك والحمد، وأنه خَلَقَنا فمنّا كافر ومنّا مؤمن، وهو بصيرٌ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بما نعمله؛ وأنّه، جلّ جلاله، خلق السماوات والأرض بالحقّ، ولم يخلقهما عبثاً؛ وأنّه صوّرنا فأحسن صُوَرَنا وإليه مصيرنا؛ وأنه يعلم ماتُسِرُّ وما نُعْلِنُ فيحاسبنا عليهما؛ ثم ذكر ما أنزله من عذاب الدنيا بالكافرين السابقين وما أعدّه لهم من عذاب الآخرة، ليكون في هذا نذير لهم؛ وذكر أنّهم يزعمون أنّهم لن يُبْعثوا، وردّ عليهم بأنّهم سيبعثون وسينبّأون بعملهم؛ ثم أمرهم أن يؤمنوا به وبرسوله؛ وحذّرهم اليوم الذي يجمعهم فيه وهو يوم التغابن، لأنّ أهل الحق يَغْبِنُونَ فيه أهل الباطل؛ وذكر أن من يؤمن به ويعمل صالحاً يكفّر عنه سيّئاته ويُدخله جنّاته، ومن يكفر به يعذبه بناره، وكل هذا بإذنه وتقديره؛ ثمّ أمرهم، بعد هذا، أن يطيعوه ويطيعوا رسوله، فإن أعرضوا عن طاعتهما فقد بُلّغوا ما أمروا به، وليس على النبي (ص) إلاّ أن يبلّغهم، ثمّ يتوكل بعد هذا عليه، سبحانه، هو ومن آمن به لينصرهم عليهم؛ ثم ذكر لهم أنّ من أزواجهم وأولادهم عدوّاً لهم، وحذّرهم أن يُؤْثروهم على دينهم؛ ثمّ أمرهم أن يتقوه ما استطاعوا، وينفقوا في سبيله من أموالهم. ووعدهم بأن يضاعف لهم ما ينفقونه ويغفر لهم، لأنّه شكور حليم: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «التغابن»(*)

أقول: لمّا وقع في آخر سورة «المنافقون»: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [الآية ١٠]. عقّب بسورة التغابن، لأنه قيل في معناه: إن الإنسان يأتي يوم القيامة، وقد جمع مالاً، ولم يعمل به خيراً، فأخذه وارثه بسهولة، من غير مشقّة في جمعه، فأنفقه في وجوه الخير، فالجامع محاسَبٌ معذّب مع تعبه في جمعه، والوارث منعّم مُثاب، مع سهولة وصوله إليه، وذلك هو التغابن.

فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح. ولهذا قيل هنا: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وأيضاً ففي آخر «المنافقون»: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٩]. وفي هذه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الآية ١٥]. وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة، ولذا ذكرت على ترتيبها[١].

وقال بعضهم: لمّا كانت سورة «المنافقون» رأس ثلاث وستين سورة، أشير فيها إلى وفاة النبي (ص) بقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [الآية ١١]. فإنّه مات على رأس ثلاث وستين سنة، وعقّبها بالتغابن، ليظهر التغابن في فقده (ص)[٢].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) يعني الأموال أوّلاً، والأولاد ثانياً، وفي كلتا السورتين.

(٢) أورد السيوطي هذا القول في الإتقان: ٤/ ٣٠ غير مَعْزوّ كما هو هُهنا، كدليل على أنه ما من شيء إلاّ ويمكن استخراجه من القرآن.

المعاني اللغوية في سورة «التغابن»(*)

قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [الآية ٦] بالجمع لأنّ «البَشَر» في المعنى جماعة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «التغابن»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [الآية ٢] فقدّم الكافر في الذكر؟

قلنا: الواو لا تَعني رتبة ولا تقتضي ترتيباً، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر/ ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر/ ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى]. وقد ذكرنا في الآية الأخيرة معنًى آخر في موضعها.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [الآية ٦] يوهم وجود التولّي والاستغناء معاً بعد مجيء رسلهم إليهم، والله تعالى لم يزل غنياً؟

قلنا: معناه: وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم إلى الإيمان، ولم يضطرّهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [الآية ١١] مع أن الهداية سابقة على الإيمان، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان؟

قلنا: ليس المراد «يَهْدِ» قلبه للإيمان، بل المراد به «يهدِ» قلبه لليقين عند نزول المصائب، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. الثاني «يَهْدِ» قلبه للرّضا والتسليم عند نزول المصائب. الثالث

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

«يهد» قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب، وهو أن يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]. الرابع «يهْدِ» قلبه: أي يجعله ممّن إذا ابتلي صبر، وإذا أُنعم عليه شكر، وإذا ظُلِم غفر. والخامس: «يهد» قلبه لاتّباع السُّنَّةِ إذا صحّ إيمانه، وقرئ (يهدَأ) بفتح الدال وبالهمز، من الهدوء، وهو السّكون، فمعناه: ومن يؤمن بالله إيماناً خالصاً يسكن قلبه، ويطمئن عند نزول المصائب والمحن، ولا يجزع ويقلق.

المعاني المجازية في سورة «التغابن»(*)

في قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [الآية ٨] استعارة. والمراد بالنور ههنا القرآن. وإنّما سُمّي نوراً لأنّ به يُهتدَى في ظُلَم الكفر والضلال، كما يُهتدى بالنور الساطع، والشهاب اللامع. وضياءُ القرآن أشرف من ضياء الأنوار، لأن القرآن يعشُو إليه القلب، والنورُ يعشُو إليه الطَّرْف.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [الآية ٩]. فذِكْر التغابن هٰهنا مجاز، والمراد به، والله أعلم، تشبيه المؤمنين والكافرين بالمتعاقدين والمتبايعين؛ فكأنّ المؤمنين ابتاعوا دار الثواب، وكأنّ الكافرين اعتاضوا منها دار العقاب، فتفاوتوا في الصَّفقة، وتغابنوا في البيعة، فكان الربحُ مع المؤمنين، والخسران مع الكافرين.

ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الصف].

وليس في السورة التي يذكر فيها «الطلاق»(*) شيء من الغرض الذي نَقْصِدُهُ في هذا الكتاب.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(*) يرى المؤلّف أن سورة الطلاق ليس فيها شيء من مجازات القرآن.

سورة الطلاق

٦٥

أهداف سورة «الطلاق»(*)

سورة الطلاق سورة مدنية وآياتها ١٢ آية، نزلت بعد سورة الإنسان.

العناية بالأسرة

عُنِيَ الإسلام بنظام الأسرة، ودعا إلى تدعيم روابط المحبة والمودّة بين الزوجين، وجعل الأُلفة بينهما آيةً من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم/ ٢١].

وقد حفَل القرآن الكريم بشأن العلاقات الزوجية والعائلية، فحرَص على سلامة الأسرة وتأكيد مودة الأبناء للآباء، ورعاية الآباء للأبناء، ثمّ حثّ الزوج على إحسان معاملة زوجته، والتسامح معها، والصفح عن بعض هفواتها، وعدم التسرع في طلاقها. فلعلّ البغيض يصبح حبيباً، ولعلّ الله أن يرزق الزوجين ثمرة تقوّي الروابط المشتركه بينهما. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

«إنّ الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها، وإنّما ينظّمها ويطهّرها، ويرفعها عن المستوى الحيواني، ويرقّيها حتّى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية؛ ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التي تجعل من التقاء جسدين،

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

التقاء نفسين وقلبين وروحين؛ وبتعبير شامل التقاء إنسانين، تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلامٌ مشتركة، ومستقبل مشترك، يلتقي في الذرّيّة المرتقبة، ويتقابل في الجيل الجديد، الذي ينشأ في العشّ المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان».

وقد حظيت تشريعات الأسرة بعناية القرآن والسُنّة، والفقه الإسلامي والدراسات الإسلامية.

وندرك، من روح الدين الإسلامي ومن تشريعاته، رغبته في استقرار الأسرة، واستمرار الرابطة الزوجية.

«وقد أحاط الإسلام رابطة الزوجية بكل الضمانات التي تَكْفَل استقرارها واستمرارها، وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات، ويفرض الآداب التي تمنع التبرُّج والفتنة، كي تستقرّ العواطف ولا تلتفّ القلوب على هتاف المتبرّجة؛ ويفرض حد الزنا وحد القذف، ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها، والاستئذان بين أهلها في داخلها».

وفي كتب الصِّحاح حشد رائع من الأحاديث النبوية الشريفة تتضمن التوصية بالنساء، وإحسان معاملتهن، وتطبيب خواطرهنّ؛ وتجعل طاعة المرأة لزوجها فريضة، ومحافظتها على بيته وسرّه وأولاده حقّاً واجباً، ورعايتها لما تحت يدها أمانة؛ وتحثّ الزوجين على تقوية الروابط بينهما، والتعاون من أجل وحدة الهدف واستبقاء الحياة الزوجية، وتربية الأبناء والذّرّيّة، فيقول النبي (ص) : «اسْتَوْصُوا بالنساءِ خيراً». ويقول عليه الصلاة والسلام: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته. الرجل راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأة في بيت زوجها راعٍ وهي مسؤولة عن رعيَّتها. . وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

الطلاق

نزل القرآن الكريم من عند العليم الخبير، البصير بالنفوس وطبائعها، والعواطف وجموحها، والغرائز وتكوينها؛ فقد تصاب سفينة الحياة الزوجية ببعض الصَّدَمات والاضطرابات، وعندئذ يوصي القرآن الرجل بالتريّث والترقّب، وعدم اتّباع الهوى ونزوات الغضب.

فاذا اشتد الخلاف بين الزوجين، وكَثُر النزاع بينهما، فلا مانع من التفاهم بالمعروف على نقاط الخلاف، ودراسة أسباب النزاع، ليتعرّف كلّ طرَف على ما يؤلمه من الطرف الآخر، وهذه المعرفة يمكن أن تكون وسيلة عملية إلى أن يتجنّب كلّ طرف ما يؤلم شريك حياته، أو يخفّف من هذه الآلام؛ وهذا نوع من استدامة العشرة أو تحمل المسيرة.

فإذا لم يُجْدِ التفاهم الشخصيّ بين الزوجين، وتفاقمت الأمور وتحوّلت إلى النُّفور والنشوز، والرّغبة في الإعراض والفرار، فليس الطلاق أوّل خاطر يهدي اليه الإسلام، بل لا بدّ من محاولة يقوم بها الآخرون، وتوفيقٌ يحاوله أهل الخبرة والتجربة، أو أهل العلم والمعرفة بشؤون الحياة الزوجية، أو بعض الأقارب المحنّكين. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء].

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء/ ١٢٨].

وفي نصوص القرآن والسنة والآثار ما يحضّ على استبقاء الحياة الزوجية، والقناعة والرّضا، وعدم التطلّع إلى الآخرين.

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر/٨٨]. ويقول النبي (ص) «إن الله لا يُحِبُّ الذوّاقين ولا الذوّاقات، فإذا تزوّجتم فلا تطلّقوا».

وجاء رجل إلى سيّدنا عمر رضي الله عنه، يريد أن يطلّق زوجته، فسأله عمر عن السبب، فقال الرجل إني لا أحبّها، فقال له عمر: أوَ كلّ البيوت تُبنى على الحبّ؟فأين التذمُّم وأين الوفاء؟ أي إنك أعطيت زوجتك أملاً وعهداً صادقاً، وذمّةً بأن تكون لك، فاتق الله في هذا العهد، وهذه الذمة، وهذا الأمل؛ فلا تهدم بيتك بيدك، ولا تخيّب آمالاً تعلّقت بك.

وقد سمّى الله الزواج ميثاقاً غليظاً، ثم حثّ على حُسْن العشرة، أو على الفراق بالمعروف، والإحسان إلى الزوجة ومكارمتها، وترك بعض الأموال والمهر تطييباً لخاطرها، وتعويضاً لها عمّا أصابها من أضرار.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء].

مع السورة

ممّا شرعه الله تعالى للحدّ من الطلاق، أنه سبحانه لم يبح الطلاق في كل وقت، بل أمر بالصبر والتريث والانتظار؛ فقد يكون الرجل واقعاً تحت تأثير غضب جامح، أو نزوة عارضة.

كما أنّ المرأة إنسان مرهف الإحساس في حاجة إلى التلطّف وحسن المعاملة. ويتمثّل ذلك فيما يأتي:

١ ـ ينبغي أن يكون الطلاق في طُهْرٍ لم تُجامَعْ فيه المرأةُ حتى تستقبل عِدَّتَها بدون تطويل عليها.

٢ ـ ينبغي أن تقيم المرأة في بيت الزوجية، فهو بيتها ما دامت على ذمّة الزوج، ولا يجوز خروجها منه إلاّ في حالة الضرورة، بأن يترتّب على بقائها في البيت نزاع لا يطاق، أو إساءة لأهل الزوج، أو ارتكاب لذنوب كبيرة.

٣ ـ أباح الله للزوج مراجعة زوجته في فترة العِدَّة، ولعلّ في بقائها في بيت زوجها ما يجعله يعدل عن الطلاق؛ ثمّ إنّ القلوب بيد الله تعالى، وهو سبحانه مقلّب القلوب. قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾.

٤ ـ إذا أتمّت المرأة عِدَّتها فيجب أن يمسكها الزوج بالمعروف، أو يفارقَها بالمعروف؛ ولا بدّ من الإشهاد على الطلاق أو الرّجعة، حتّى تكون الحياة بين الزوجين ناصعة نزيهة.

٥ ـ حثّ القرآن على التقوى ومراقبة الله تعالى، وإدراك أنّ الرزق بيده سبحانه؛ والمال رزق، والتوفيق رزق، وينبغي أن يكون المؤمن متوكلاً على الله في كلّ حال؛ فهو مقدّر الأمور ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ فلكلّ حياة ولكلّ أمر قدر، وكلّ شيء مقدّر بمقداره، وبزمانه وبمكانه وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه، وليس شيء مصادفة، وليس شيء جزافاً في هذا الكون كلّه، وفي نفس الإنسان وحياته.

٦ ـ لقد بيّن القرآن في سورة البقرة عِدّة المطلّقة، بأنها ثلاث حَيْضات، فإذا حاضت المرأة ثلاث مرات تأكّدت من خلوّ رحمها من الحمل، ويباح لها الزواج بعد مدة العدة. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة/٢٢٨] وفي الآية الرابعة من سورة الطلاق بيان عدة المرأة التي لا تحيض، إمّا لصغر سنّها أو لكبر سنّها؛ فالمرأة قبل البلوغ لا تحيض، وبعد سن الخمسين سنة لا ينزل عليها الحيض.

ومثل هذه المرأة عِدّتها ثلاثة أشهر، أمّا المرأة الحامل فعدّتها وضع الحمل.

وتتخلّل آيات الطلاق دعوة الى تقوى الله، وبيان أنّ هذه الأحكام من عند الله، ومن يتّقِ الله ويُطِعْ أوامره ويحسن معاملة الطرف الآخر، فله أجر عظيم، وثواب كبير.

٧ ـ وتفيد الآيتان ٦ و ٧ أنّ الزوجة في فترة العدة لا تزال على ذمة الزوج، ولذلك يجب أن تسكن في سكن مناسب لحالة الزوج، ولا يصحّ أن يحتال الزوج لينزل ضرراً بزوجته؛ ومهما طالت فترة الحمل فيجب على الزوج أن يساهم في نفقة الحامل حتّى تضع حملها، وفي فترة الرضاعة يجب على الزوج أن يساهم في نفقة الرضاعة، ودفع أجرتها للأم، وهذه النفقة تقدّر بحال الزوج ويساره أو إعساره.

وبذلك وضع القرآن أصولاً يلتزمها كلّ إنسان، فالفقير ينفق حسب حالته، والغني ينفق ممّا أعطاه الله، والأرزاق بيد الله فهو سبحانه الميسّر، وهو الرزّاق ذو القوّة المتين، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

٨ ـ وقد عالجت السورة كل أنواع الكيد والحيل في إصابة الشريك بالأذى عند إنهاء الحياة الزوجية، بقوله تعالى ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ وهذا القول يشمل كل أنواع العنت التي لا يحصرها نصّ قانوني مهما اتّسع؛ وفي الحديث الشريف: «لا ضرر ولا ضِرار»، وهو أصل عامّ يَنْهَى المؤمن عن ضرر الناس، فضلاً عن إضراره بمن كانت زوجة له.

وتفيد السورة أنّ الرزق بيد الله، وأنّ الأمل في وجه الله؛ وبذلك تنتهي الحياة الزوجية بالأدب الجميل الرفيع، وبالأمل في استئناف حياة أفضل وأيسر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

وفي ختام سورة الطلاق تعرض السورة عدداً من المؤثرات العاطفية تظهر فيها قدرة الله وجلاله، فإن تَغَلَّب شريك على شريكه الآخر، أو استطاع أن يظلمه، فليتذكر قدرة الله وعقابه للظالمين.

لا تظلمَنَّ إذا ما كنت مقتدراً
الظّلم شيمته يفضي إلى الندمِ
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ
يدعو عليك وعينُ اللهِ لم تنم

[فالآيات ٨ ـ ١٢] وإن كانت في غير موضوع الطلاق، إلاّ أنها تعزف على نغمة مؤثّرة، وتهتف بالقلوب حتّى ترقّ، وبالأفئدة حتّى ترعى جلال الله؛ فالله تعالى أخذ القرى واحدة بعد أخرى، عندما كذّبت برسلها؛ وقد ساق القرآن هذه العبرة في مصير الذين عَتَوْا عن أمر ربّهم ورسله، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا، لتذكّر الناس بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتّقي ولا يطيع، كما تذكّرهم بنعمة الله على الناس في إرسال الرسل، وإنزال التشريع لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات الى النور.

١٠ ـ والآية الاخيرة في السورة تشير إلى قدرة الله العالية الذي خلق السماوات السبع والأرضين السبع، وهو العليم بما يناسب كلّ المخلوقات والموجودات في السماء والأرض. ثمّ إنّ هذه الأحكام موكولة الى الضمائر، واليقين الجازم بسعة علم الله، واطّلاعه على جميع أفعال العباد.

وهكذا تختتم السورة بما يدعو القلوب إلى الإخبات والإنابة؛ فسبحان الحكيم العليم، الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وهو الخبير بما يناسب عباده، والمطّلع على خفايا القلوب، وهو عليم بذات الصدور.

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة الطلاق ما يأتي: بيان طلاق السُّنّة، وأحكام العِدّة، والتوكّل على الله في الأمور، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاعة، وبيان عقوبة المعتدين وعذابهم، وأنّ التكليف على

قدر الطاقة، وللصالحين الثواب والكرامة، وبيان إحاطة العلم والقدرة في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الطلاق»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الطلاق بعد سورة الإنسان. ونزلت سورة الإنسان بعد سورة الرحمن، ونزلت سورة الرحمن فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوك. فيكون نزول سورة الطلاق في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الآية ١] وتبلغ آياتها اثنتي عَشْرَة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السّورة بيان أحكام الطلاق والعِدّة، وكان المشركون يأخذون في ذلك بشرائع جائرة في حقّ النّساء، فنزلت هذه السّورة بإنصافهنّ في طلاقهنّ وعِدّتِهِنّ، وتحذير المشركين من الإصرار على شرائعهم الجائرة في هذا وغيره؛ وبهذا يكون سياق هذه السّورة قريباً من سياق السُّور السّابقة، وتظهر المناسبة في ذكرها بعد سورة التغابن.

حكم الطلاق والعدة
الآيات [١ ـ ١٢]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ فذكر سبحانه أحكام الطلاق والعِدّة في سبع آيات من هذه السّورة؛ وذكر، جلّ جلاله، في خلالها من الوعيد على مخالفتها ماذكر، ثمّ ختم ذلك بذكر ما حصل للقرى السابقة حينما عتتْ عن أمر ربها من شدّة الحساب، ونُكر العذاب، وخُسْر العاقبة، ليحذّرهم مخالفة ما ذكره من الأوامر والأحكام؛ وليتّقي هذا، أولو الألباب من المؤمنين؛ ثم ذكر تعالى أنه قد أنزل إليهم، بهذا، ما فيه شرف لهم، لأنه يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وأنّ من يؤمن به، ويعمل صالحاً يدخله جنّاتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، قد أحسن الله له رزقاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾.

أسرار ترتيب سورة «الطلاق»(*)

أقول: لمّا وقع في سورة التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ [الآية ١٤]، وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة، وترك الإنفاق عليهم، عقّب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق، والإنفاق على الأولاد والمطلّقات بسببهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

المعاني اللغوية في سورة «الطلاق»(*)

قال تعالى: ﴿قَدْرًا ③﴾ وقرأ بعضهم (قَدَراً) وهما لغتان.

وقال تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الآية ٦] و«الوُجْدُ»: المقدرة؛ ومن العرب من يكسر في هذا المعنى؛ فأما «الوَجْدُ» إذا فتحتَ الواو فهو «الحُبُّ». وهو في المعنى، والله أعلم، «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِمَّا تَقْدِرُون عليه».

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الآية ١٢] بجَعْل (الأرض) جماعة، كما تقول: «هَلَكَ الشاةُ والبَعِيرُ» وأنت تعني جميعَ الشاءِ وجميعَ الإبل.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «الطلاق»(*)

إنْ قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الآية ١] أفرد الخطاب أولاً، ثمّ جمعه ثانياً؟

قلنا: أفرد سبحانه النبيّ (ص) أولاً بالخطاب، لأنه إمام أمّته وقدوتهم، إظهاراً لتقدّمه ورياسته، وأنه وحده في حكم كلّهم، وسادٌ مسدّ جميعهم. الثاني: أن معناه: يا أيّها النبي قل لأمّتك إذا طلّقتم النساء.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾. ونحن نرى كثيراً من الأتقياء مُضَيَّقاً عليهم رزقهم؟

قلنا معناه: يجعل له مُخَلِّصاً من هموم الدنيا والآخرة. وعن النبيّ (ص) أنه قال: مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غَمَرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: يُنْجيه من كلّ كَرْب في الدنيا والآخرة. والصحيح أنّ هذه الآية عامّة، وأنّ الله يجعل لكلّ متّقٍ مخرجاً من كلّ ما يضيق على من لا يتّقي، ولذا قال النبي (ص) «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الآية ٢]. وجعل يقرأها ويعيدها»؛ وأمّا تضييق رزق الأتقياء، فهو مع ضيقه وقلّته، يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون؛ وتقليله لطف بهم ورحمة، ليتوفر حظّهم في الآخرة ويخفّ حسابهم، ولتقلّ عوائقهم عن الاشتغال بمَوْلاهم، ولا يشغلهم الرخاء والسّعة عمّا خلقوا له من الطاعة

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

والعبادة، ولهذا اختار الأنبياءُ والأولياء والصِّدِّيقون الفقر على الغِنى.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الآية ٣]، أي من يتق به فيما نابه كفاه الله شرّ ما أهمّه، وقد رأينا كثيراً من الناس يتوكّلون على الله في بعض أمورهم وحوائجهم، ولا يُكفَوْنَ همَّها؟

قلنا: مُحالٌ أنّه يتوكل على الله حقّ التوكّل ولا يكفيه همّه، بل ربما قَلِق وضَجِر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضاً، فَفسد توكُّله؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الآية ٣] أي نافذ حكمه، يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد، ولا يُعجِزه مطلوب، وبقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ أي جعل لكل شيء، من الفقر والغنى، والمرض والصحة، والشدة والرخاء، ونحو ذلك، أجلاً، ومنتهًى ينتهي إليه لا يتقدّم عنه ولا يتأخّر.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الآية ٤]، علّقه بشكّنا مع أنّ عِدّتهنّ ذلك سواء أوُجِدَ شكّنا أم لا؟

قلنا: المراد بالشكّ الجهل بمقدار عدة الآيسة والصغيرة، وإنما عُلِّقَ به لأنّه، لمّا نزل بيان عِدّة ذوات الأقراء في سورة البقرة، قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: قد بقي الكبار والصغار لا ندري كم عِدّتهنّ، فنزلت هذه الآية على هذا السبب، فلذلك جاءت مقيّدة بالشكّ والجهل.

فإن قيل: إذا كانت المطلّقة طلاقاً بائناً تجب لها النفقة عند بعض العلماء، فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ [الآية ٦]؟

قلنا: الحكمة فيه، أن لا يُتوهَّم أنه إذا طالت مدّة الحمل بعد الطلاق حتّى مضت مدّة عِدّة الحائل، سقطت النفقة؛ فنفى سبحانه هذا الوهم، بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الآية ٦].

فإن قيل: لِمَ قال هنا: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح] فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى «مع» بعده لأنّ الضدّين لا يجتمعان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فنسب العتوّ إليها، وقال تعالى ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ بلفظ الماضي، مع أنّ الحساب والعذاب المرتّبين على العتوّ، إنّما هما في الآخرة لا في الدنيا؟

قلنا: معناه عتا أهلها، وإنّما جيء به على لفظ الماضي تحقيقاً له وتقريراً، لأنّ المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آتٍ لا محالة، وما هو كائن فكأنه قد حصل، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف/ ٥٠] وما أشبهه.

سورة التَّحريم

٦٦

أهداف سورة «التحريم»(*)

سورة التحريم سورة مدنية، آياتها ١٢ آية، نزلت بعد سورة الحجرات.

شاء الله، سبحانه، أن يكون الرسول بشراً بِـهِ قـوّة الإنسـان، وتـجارب الإنسان، ومحاولات الإنسان، وضعف الإنسان، لتكون سيرة هذا الرسول الإنسان نموذجاً عملياً للمحاولة الناجحة، يراها ويتأثر بها من يريد القدرة الميسّرة العملية الواقعية، التي لا تعيش في هالات، ولا في خيالات.

وهذه السورة فيها عتاب للرسول الأمين على تحريمه ما أحل الله له، ولو كتم النبيّ (ص) من أمر القرآن شيئاً لكتم هذا العتاب.

إن هذا القرآن كتاب الحياة بكلّ ما فيها، وقد شاء الله أن يواكب الوحي حياة الرسول الأمين، فيبارك الخطوات الناجحة، ويُقَوّم ما يحتاج الى تقويم، وبذلك تكون القدوة في متناول الناس، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

لقد عاتب القرآن رسول الله في قبوله الفداء من أسرى بدر، وفي إذنه للمخلّفين بالقعود عن الجهاد، وفي إعراضه عن الأعمى الذي ألحّ في السؤال، وفي تحريمه ما أحلّ الله له.

كما عرض القرآن جوانب القوّة والجهاد والتربية والسلوك للنبيّ الأمين، وجعل حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمّته وللبشريّة كلّها، تقرأ فيه صورة العقيدة، وترى فيه تطبيقاتها

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الواقعية، ومن ثَمّ لا يجعل فيها سرّاً مخبوءاً ولا سِتْراً مطويّاً، بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يُطوَى عادة عن الناس في حياة الإنسان العاديّ، حتّى مواضع الضعف البشريّ، الذي لا حيلة فيه لبشرٍ، بل إنّ الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول (ص) للناس.

إن حياة الرسول ملك للدعوة، وهي الصورة المنظورة الممكنة التطبيق من العقيدة، وقد جاء ليعرضها للناس في شخصه وفي حياته، كما يعرضها بقوله وفعله، ولهذا خُلِق، ولهذا جاء، لتكون السُّنَّة هي ما أُثِر عن الرسول (ص)من قول أو فعل أو تقرير، وليكون هو النموذج العمليّ الملموس في دنيا الناس، يتعرّض للأحزان، ويموت ابنه، ويصاب في غزوة أحد، وتنتشر الإشاعات عن زوجته عائشة، ويَعيب المنافقون عليه بعض الأمور، لتكون الصورة كاملة للإنسان بكلّ ما فيه، وليكون الوحي بعد ذلك فيصلاً، ودليلاً هادياً في ما ينبغي سلوكه في هذه الحياة.

قصة التحريم

تزوّج النبيّ (ص) تسع نساء لِحِكَمٍ إلٰهية، ولتكون هذه الزوجات مُبَلِّغاتٍ لشؤون الوحي في ما يخصّ النساء. وقد قضى النبيّ صَدْر حياته مع خديجة، وكان عمره، عند زواجه منها، ٢٥ سنة وعمرها أربعين، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولم يتزوّج غيرها في حياتها، وكان وفياً لذكراها، وقد ماتت خديجة وعمره خمسون عاماً.

ثم تزوّج النبيّ عائشةَ بنت أبي بكر الصديق، وحفصة بنت عمر؛ وأمّ سلمة، وقد مات زوجها شهيداً فضم النبي إليه عيالها من أبي سلمة وتزوجها؛ وزينب بنتَ جحش زوجَ مولاه ومُتَبَنّاه زيد، ليكون ذلك تشريعاً للناس في إباحة زواج الإنسان من زوجة ابنه المُتَبنَّى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب].

ولمّا تزوّج النبيّ جورية بنت الحارث سيد بني المصطلق، أعتق الصحابةُ أقاربها وأسلم أهلها، وكانت أيْمَنَ

امرأةٍ على قومها؛ ثمّ تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة إلى الحبشة، ثمّ ارتدّ زوجها وتنصّر، فخطبها النبيّ، وجاءت من الحبشة إلى المدينة؛ ثمّ تزوّج، إثْرَ فتح خيبر صفيّة بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير؛ وكانت آخر زوجاته ميمونة بنت الحارث بن حزن، وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عبّاس.

وكانت لكل زوجة من أزواجه (ص) قصة وسبب في زواجه منها، ولم يكن معظمهنّ شابّات، ولا ممن يرغب فيهنّ الرجال لجمال، وكلّ نسائه قد سبق لهن الزواج ما عدا عائشة، فقد كانت البكر الوحيدة بين نسائه.

وقد أَنجب النبيّ (ص) جميع أبنائه من خديجة، فقد رزق منها صبيّين وأربع بنات، وقد مات الصبيان في صدر حياته، وبقيت البنات الى ما بعد الرسالة؛ ثم ماتت ثلاث من بناته في حياته، وهن: رقيّة وزينب وأمّ كلثوم، وعاشت فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر بعد وفاة أبيها (ص).

ولم ينجب عليه الصلاة والسلام من زوجة أخرى غير خديجة. وكان المقوقس ملك مصر قد أهدى إليه جاريتين هما مارية وسيرين، فَتَسَرّى بمارية، وأهدى سيرين إلى حسّان بن ثابت. ولما كانت مارية جارية، لم يكن لها بيت بجوار المسجد، فكان بيتها في عوالي المدينة، في المحلّ الذي يقال له الآن مشربة أمّ إبراهيم، وقد رُزِق النبي منها بمولود ذكر سمّاه إبراهيم تيمّناً بإبراهيم الخليل (ع).

وقد ماتت خديجة والنبيّ في الخمسين، ولم يُرْزق بمولود من نسائه جميعاً طوال عشر سنوات، ثمّ رزق إبراهيم وقد تخطّى إلى الستّين، ففاضت نفسه بالمسرّة، وامتلأ قلبه الإنساني الكبير أُنساً وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينيه الى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادت عنده حظوة وقرباً.

كان طبيعياً أن يدسّ ذلك، في نفوس سائر زوجاته، غيرة تزايدت أضعافاً بأنها أمّ إبراهيم، وبأنهنّ جميعاً لا وَلَدَ لهنّ، وكان النبيّ (ص) يتردّد كل يوم على إبراهيم، ويحمله بين يديه، ويفرح لابتسامته البريئة، ويُسَرُّ بنموّه وجماله.

وكانت المرأة في الجاهلية تسام

الخَسْفَ صغيرةً، وتُمسك على الذلّ كبيرة، فلمّا جاء الإسلام حَرَّم وأد البنات، وسما بالمرأة إلى منزلة عالية، ووصّى النبي بالنساء خيراً، وعامَلَ نساءه معاملة حسنة، وجعل لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفاً قط عند العرب.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي، إذا خلا بنسائه، ألْيَنَ الناس، وأكرم الناس، ضحاكاً بسّاماً».

تحريم مارية

حدث أن جاءت مارية القبطية من عوالي المدينة إلى رسول الله، وكانت حفصة في زيارة لبيت أبيها، فدخلت مارية في حجرة حفصة، وأقامت بها وقتاً مع النبي (ص)، وعادت حفصة فوجدت مارية في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشدّ ما تكون غيرة، وجعلت كلّما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدّة، فلمّا خرجت مارية ودخلت حفصة قالت يا نبيّ الله «لقد جئت إليّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك بمثله، في يومي وفي دوري وعلى فراشي».

قال: «ألا ترضين أن أُحرّمَها فلا أقربها» قالت: بلى، فَحَرَّمها وقال: «لا تذكري ذلك لأحدٍ» فذكرته لعائشة، فأظهره الله عزّ وجلّ، فأنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [الآية ١]، فبلغنا أن النبيّ (ص) كَفَّرَ بيمينه وأصاب جاريته.

تحريم العسل

روَى البخاري عن عائشة قالت كان النبي (ص)، يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها فتواطأْتُ أنا وحفصة على أيّتنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير(*)؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفْت، لا تخبري بذلك أحداً».. فهذا هو ما حرّمه على نفسه وهو حلال له، وقد نزل بشأنه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [الآية ١].

ويبدو أنّ التي حدّثها الرسول (ص)

(*) المغافير: صمغ حلو الطعم، كريه الرائحة

هذا الحديث وأمرها بستره، قالته لزميلتها، ثم اطلع الله رسوله على حديثهما.

قال ابن جرير الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرمه النبيّ (ص)على نفسه شيئاً كان الله قد أحلّه له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شراباً من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك؛ غير أنّه أيّ ذلك كان، فإنّه كان تحريم شيء كان له حلالاً، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه».

النبيّ (ص) يهجر نساءه

كان من جراء هذا الحادث، وهو تحريم مارية أو تحريم العسل، وما كشف عنه من مكايدات في بيت الرسول (ص)، أنْ غَضِب النبي، فآلى من نسائه لا يقربهن شهراً، وهَمَّ بتطليقهنّ، ثمّ نزلت هذه السورة وقد هدأ غضبه (ص) فعاد إلى نسائه.

روى الإمام أحمد في مسنده، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي، أن ابن عبّاس سأل عمر عن المرأتين اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [الآية ٤] فقال عمر: هما عائشة وحفصة، ثم قال عمر: كنّا معشر قريش قوماً نَغْلِب النساء فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفِقَ نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، قال عمر: فبينما أنا في أمرٍ، إذ قالت لي امرأتي: لو صنعت كذا كذا، فقلت لها: ومالكِ أنتِ، ولِمَ هٰهنا وما تكلّفكِ في أمر أريده؟ فقالت لي: عجباً لك يا ابن الخطّاب؟ ما تريد أن تُراجَع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله (ص) حتّى يظل يومه غضبان، وإن أزواج رسول الله (ص) ليُرَاجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل؛ قال: فانطلقت، فدخلت على حفصة، فقلت أتراجعين رسول الله (ص) حتّى يظلّ يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنّا لنراجعه، فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنيّة لا يغرّنك هذه التي أحذّرك عقوبة حسنها وحب رسول الله (ص) إيّاها. واعتزل رسول الله (ص) نساءه شهراً، منقطعاً عنهنّ في مشربةٍ منعزلة، واستأذن عمر على رسول الله (ص) ثلاث مرّات حتّى أذن له، قال عمر: فدخلت، فسلّمت على رسول الله (ص)، فاذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه، فقلت:

أطَلَّقْتَ يا رسول الله نساءك، فرفع رأسه إليّ وقال: لا، فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أنْ تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي (ص) ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسّم رسول الله (ص)، فقلت يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرّنك أنْ كانت جارتك هي أوسم أو أحبّ إلى رسول الله (ص) منك، فتبسّم أخرى، فقلت: استأنس يا رسول الله؟ قال: نعم فجلستُ، فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يردّ البصر إلاّ هيبة مقامه، فقلت ادع الله يا رسول الله أنْ يوسّع على أمّتك فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: أفي شكّ أنت يا ابن الخطّاب؟ أولئك قوم عجّلت لهم طيّباتهم في الحياة الدنيا. فقلت استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم ألا يدخل عليهنّ شهراً، من شدّة مَوْجِدَتِهِ عليهنّ.

اصطفاء الرسول (ص)

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج].

لقد اصطفى الله سبحانه محمداً (ص) ليبلّغ الرسالة الأخيرة للناس، واختاره إنساناً تتمثّل فيه العقيدة الإسلامية بكلّ خصائصها، وتتجسّم فيه بكل حقيقتها ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها، إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلّها، ضليع التكوين الجسدي، قويّ البنية، سليم البناء، صحيح الحواسّ، يَقِظَ الحس، يتذوّق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً، وهو في الوقت ذاته حيّ العاطفة والطبع، سليم الحساسية، يتذوق الجمال، منفتح للتلقّي، والاستجابة، وهو في الوقت ذاته كبير العقل، واسع الفكر، فسيح الأفق، قويّ الارادة، يملك نفسه ولا تملكه؛ ثمّ هو، بعد ذلك كلّه، النبيّ الذي تشرق روحه بالنور الكلّيّ، والذي

تطيق روحه الإسراء والمِعْراج، والذي ينادى من السماء، والذي يرى نور ربّه، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كلّ شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر، فيسلم عليه الحصى والحجر، ويحّن له الجِذْع، ويرتجف به جبل أُحُد؛ ثمّ تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلّها، فإذا هي التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها».

مع السورة

١ : حرّم النبي (ص) مارية القبطية على نفسه، أو حرم العسل على نفسه، مرضاةً لزوجاته؛ وتَنَزُّل وحيُ السماء، يفيد أنّ ما أحلّه الله لا ينبغي أن يحرّمه الإنسان.

٢ : أباح الله للإنسان إذا حرّم حلالاً أو أقسم على يمين ورأى غيرها خيراً منها؛ أن يأتي الذي هو خير ثم يكفّر عن يمينه.

٣ : أخبر النبي (ص) حفصة بتحريم مارية، وأنّ أبا بكر وعمر يليان أمر هذه الأمَةِ من بعده، وأمرها أن تكتم ذلك، ولكنّها لم تكتمه، وأخبرت به عائشة، وعلم النبيّ بذلك، فلام حفصة على إفشاء سرّه، وأخبرها أنّه لم يعلم هذا السر من عائشة، ولكن من العليم الخبير.

٤ : أذبت السورة عائشة وحفصة، وبيّنت أنّ التآمر وإفشاء السر مؤلم للنبي، ومقلق لهذا القلب الكبير؛ وهذا أمر يستحقّ التوبة والإنابة؛ ثمّ بيّنت أنّ إيلام النبيّ أمرٌ كريهٌ، وسيرتدّ الكيد على صاحبه، لأنّ النبيّ معه قوة غالبة؛ يكفي أنّ معه الله والملائكة وصالح المؤمنين.

٥ : هدّد الله نساء النبيّ بالطلاق، وبأنْ يعوّضه الله منهنّ بنساءٍ هنّ المثل العليا في القنوت والعبادة والتوبة والجمال؛ وقد أثمر هذا التهديد ثمرته، فعادت نساؤه إلى الطاعة والخضوع، واستأنف النبيّ حياته متفرّغاً لرسالته، وتبليغ دعوته ومرضاة ربّه، قرير العين في بيته ومع أسرته.

والآيات ترسم صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمّة، وإقامة دولة، على غير مثال معروف، وعلى غير نسق مسبوق، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشئ في الأرض مجتمعاً ربّانياً في صورة واقعية يتأسّى بها الناس. »

وفي ظلال هذا الحادث، تُهيب الآيات ٦ ـ ٩: بالذين آمنوا ليؤدّوا واجبهم في بيوتهم، من التربية والتوجيه والتذكير، فَيَقُوا أنفسهم وأهليهم النار، ويرسم لهم مشهداً من مشاهدها، وحال الكفار عندها.

ثمّ تجدّد الدعوة إلى التوبة النصوح، وتصور لهم الجنّة التي تنتظر التائبين؛ ثمّ تدعو النبي (ص) إلى جهاد الكفار والمنافقين وحماية المجتمع الإسلامي من الداخل والخارج.

فالآيات الأولى [١ ـ ٥]: دعوة لتوبة نساء النبيّ وحماية بيته ونفسه. والآيات التالية [٦ ـ ٩]: دعوة لتوبة المؤمنين ومحافظتهم على تربية أولادهم وبناتهم، لأنّ الأسرة هي قوام المجتمع.

ثمّ تجيء الجولة الثالثة والأخيرة، وكأنّها التكملة المباشرة لتهديد عائشة وحفصة، فقد تحدّثت الآيات [١٠ ـ ١٢] عن امرأة نوح (ع) وامرأة لوط (ع)، كَمَثَلٍ للكفر في بيت مؤمن، وهو تهديد مستتر لكلّ زوجة تَخُون زوجها وتخون رسالته ودعوته، فلن يُنجِيَها من العذاب أنّ أقرب الناس إليها نبيٌّ رسول، أو داعية كريم، ولا يضرّ المرأة المؤمنة أن يكون أقرب الناس اليها طاغية جبّاراً، أو ملكاً متسلّطاً معتدّاً؛ وقد ذُكرت امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر، وجعلت السورة في ختامها نموذجاً رفيعاً للمرأة المؤمنة، يتمثّل في آسية (ع) امرأة فرعون التي استعلت على المال والملك والجاه والسلطان، ورغبت في ما عند الله.

ويتمثّل في مريم ابنة عمران (ع)، المتطهّرة المؤمنة القانتة المصدقة بكلمات ربّها وكتبه.

وبذلك نجد المرأة في ركب الإيمان، ويتحدّث القرآن عنها كنموذج للخير يتمثّل في أمّ موسى (ع)، وفي أم عيسى (ع)، وفي بلقيس التي أسلمت لله رب العالمين، وفي امرأة فرعون التي زَهِدت في مُلْك فرعون، ورغبت في ثواب الله ربّ العالمين.

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود سورة التحريم ما يأتي:

عتاب الرسول (ص) في التحريم والتحليل، قبل ورود وحي سماويّ، وتعيير الأزواج الطّاهرات على إيذائه

وإظهار سرّه، والأمر بالتحرّز والتجنّب من جهنّم، والأمر بالتوبة النصوح، والوعد بإتمام النور في القيامة، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة، ومع المنافقين بالبرهان والحجّة، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة، وأنّ قرب المفسدين لا يضرّ مع وجود الصدق والإخلاص، والخبر عن صدق إيمان امرأة فرعون، وتصديق مريم بقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «التحريم»[*]

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة التحريم بعد سورة الحجرات، ونزلت سورة الحجرات فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة التحريم في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [الآية ١]، وتبلغ آياتها اثنتي عشرة آية.

الغرض منها وترتيبها

نزلت هذه السورة في ما كان من عائشة وحفصة حين شرب النبي (ص) عسلاً عند زينب بنت جحش، فتواطأتا وقالتا له: إنّا نشمّ منك ريح المغافير. وهو جمع مِغْفَر، أو مُغْفَر، أو مُغفور، أو مِغفار، أو مِغفير، وهو شيء ينضحه الثُمام[1] يشبه العسل، وريحه كريهة منكرة. فلمّا سمع منهما ذلك حَرَّم العسل على نفسه، فنزلت هذه السورة لعتابه على تحريم ما أحلّ الله له، وتهديد نسائه بطلاقهنّ إن لم يَتُبْنَ عن هذه الغيرة فيما بينهنّ؛ والمناسبة بين هذه السورة وسورة الطلاق أنّها في شأن النساء أيضاً.

قصة التحريم
الآيات [١ ـ ١٢]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمامز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

(١) الثُمام: نبت عُشبيّ برّيّ وزراعي. واحدته ثمامة.

مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾، فعاتب النبي (ص) على تحريم العسل الذي أحلّه له ابتغاء مرضاة أزواجه، وذكر، سبحانه، أنه شرع لهم أن يتحلّلوا من أيمانهم بالكفّارة، ليتحلّل النبيّ (ص) من يمينه ويعود إلى شرب العسل؛ وكان النبيّ (ص) قد أسرّ إلى حفصة بتحريمه لئلاّ يُحَرّمه أصحابه على أنفسهم اقتداء به، فأخبرت به عائشة، وأطلعه الله على إفشائها سرّه؛ ثم ذكر، جلّ وعلا، لهما أنهما إن يتوبا ممّا فعلا كان خيراً لهما لأنّ قلوبهما مالت عن الحق بما فعلا، وأنهما إن يستمرّا على تظاهرهما على النبي (ص)، فإنه، جلّ شأنه، هو مولاه وجبريل والمؤمنون والملائكة، وعسى، إن طلقهنّ، أن يبدله أزواجاً خيراً منهن؛ ثم انتقل السياق منهنّ إلى المؤمنين عامّة، فأمرهم أن يَقُوا أنفسهم وأهليهم من مثل هذا ناراً وقودها الناس والحجارة، وذكر سبحانه أنه يقال لوقودها من الكفّار: لا تعتذروا اليوم، إنما تُجزَوْن ما كنتم تعملون؛ ثم أمرهم أن يتوبوا إليه تعالى توبة نصوحاً ليكفّر عنهم سيئاتهم ويُدخلهم جناته، ويجعل لهم نوراً يسعى بين أيديهم وأيمانهم، فيقولوا ربّنا أتممْ لنا نورنا واغفرْ لنا، إنّك على كل شيء قدير.

ثم أمر النبي (ص) بمجاهدة الكفّار والمنافقين لئلاّ تشغله تلك الأمور من نسائه عنها، وضرب مثلاً لنسائه امرأة نوح وامرأة لوط حين خانتا زوجيهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً، ليحذرن هذا المصير إذا اخترن أن يتظاهرن على النبي (ص). وضرب لهنّ مثلا آخر في الترغيب بعد الترهيب، اثنتين من المؤمنات السابقات: إحداهما، امرأة فرعون حينما طلبت منه، جلّ جلاله، أن يبني لها بيتاً في الجنّة ويُنجيها من فرعون وقومه؛ والثانية، مريم ابنة عمران، وقد ختمت السورة بها فقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «التحريم»(*)

أقول: هذه السورة متآخية مع التي قبلها بالافتتاح بخطاب النبي (ص)، وتلك مشتملة على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإيلاء. وبينهما من المناسبة ما لا يخفى.

ولمّا كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي (ص) إعظاماً لمنصبهن أن يُذكرن مع سائر النسوة، فأُفردن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مكنونات سورة «التحريم»(*)

١ - ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [الآية ١].

هي سرّيّته مارية. كما أخرجه الحاكمُ، والنّسائي من حديث أنس، والبزّاز من حديث ابن عبّاس، والطبراني من حديث أبي هريرة، والضّياء في «المختارة» من حديث عمر(١).

٢ - ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ [الآية ٣].

هي حَفصَة.

٣ - ﴿حَدِيثًا﴾ [الآية ٣].

هو تحريم مارية. كما في الأحاديث المذكورة.

٤ - ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [الآية ٣].

قال مُجاهِد: الذي عرّف أمر مارية،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) النّسائي ٧/ ٧١ في عشرة النساء، و«المستدرك» للحاكم ٢/ ٤٩٣؛ وفيهما أنها نزلت في أمَة كانت له: والبزاز (٢٢٧٥) وفيه أنها سرّيّته؛ ورجاله رجال الصحيح، غير بشر بن آدم الأصغر، وهو ثقة.

وتعيين أنها مارية، جاء في رواية الطبراني في «المعجم الأوسط» من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير عن عمه، قال الذهبي: مجهول، وخبره ساقط. كما في «مجمع الزوائد»٧/ ١٢٧.

وأخرج البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: أنها نزلت في شأن تحريمه على نفسه شرب العسل من عند زوجته زينب بنت جحش رضي الله عنها.

قال ابن كثير: «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية»

وقال ابن حجر في «فتح الباري» ٨/ ٦٥٧: «فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معاً».

وأعرض عن قوله: «إنّ أباك وأباها يليان الناس بعدي»[1] مخافة أن يفشو. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٥ ـ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية ٤].

٦ ـ ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾ [الآية ٤].

هما عائشة وحَفْصَة، كما في «الصحيح»[2] عن عُمَر، لمّا سأله ابنُ عبّاس عنهما.

٧ ـ ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٤].

قال النبيّ (ص): «أبو بكر وعمر» أخرجه الطبراني في «الأوسط» من حديث ابن مسعود[3]، وأخرجه أيضاً عن ابن عمر وابن عبّاس موقوفاً، وأخرج ابنُ أبي حاتِم مثله عن الضَّحّاك وغيره.

وأخرج عن سعيد بن جبير، قال: نَزلتْ في عُمَرَ خاصّةً.

٨ ـ ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ [الآية ١٠].

والعة.

٩ ـ ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [الآية ١٠].

والهة.

---

(١) نحو هذا الحديث أخرجه الطبراني؛ وفي إسناده نظر. قاله ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٣٩٠.

(٢) البخاري (٤٩١٤) في التفسير. وانظر ماقاله السيوطي، في أول هذا الكتاب، في فصل «مقدمة فيها فوائد».

(٣) وفي سنده عبد الرحيم بن زيد العمي، وهو متروك، كما في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٢٧. ولم ينصّ الهيثمي فيه على أنه في «الأوسط».

لغة التنزيل في سورة «التحريم»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [الآية ٣].

أقول: ودلّت (بعض) على الواحد، وهي نظير قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ [الشعراء].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [الآية ٤].

الخطاب إلى الاثنين، والفاعل جمع، وهذا شيء عرفناه في لغة التنزيل، اقتضته حكمة وبلاغة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [الآية ٨].

وُصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، والنصح صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفُسَهم، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفَرَطات، ماحيةً للسيئات.

أقول: وهذا أسلوب من أساليب البلاغة العربية في الصفات والموصوفات.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «التحريم»(*)

قال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [الآية ٤] بجعل الفاعل جماعة، لأنهما اثنان من اثنين.

وقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [الآية ١٢] و﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية ١١] على: «وَضَرَبَ اللهُ ٱمْرَأَةَ فِرْعَونَ وَمَرْيَمَ مثلاً».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «التحريم»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية ٤]، إن كان المراد به الفرد فأيّ فرد هو، وأيضاً فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع؛ وإن كان المراد به الجمع، فلماذا لم يكتب في المصحف بالواو؟

قلنا: هو فرد أريد به الجمع كقولك: لا يفعل هذا الفعلَ الصالحُ من الناس، تريد به الجنس كقولك: لا يفعله مَنْ صَلُح منهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة/١٧]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر/٦٧] ونظائره كثيرة. الثاني أنه يجوز أن يكون جمعاً، ولكنه كتب في المصحف بغير واو على اللفظ، كما جاءت ألفاظ كثيرة في المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ ولم يقل ظهراء، وهو خبر عن الجمع، وهم الملائكة؟

قلنا: هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق. الثاني: اسم على وزن المصدر كالزميل والدبيب والصليل، فيستوي فيه الإفراد والتثنية والجمع. الثالث: أن فعيلاً يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع، بدليل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ [ق].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

فإن قيل: قوله تعالى بعد ذلك تعظيم للملائكة ومظاهرتهم، وقد تقدّمت نصرة الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين، ونصرة الله سبحانه أعظم؟

قلنا: مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله تعالى، فكأنّه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم، ولا شكّ أنّ نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده، أو بصالح المؤمنين.

فإن قيل: كيف قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ [الآية ٥] إلى آخر الآية، فأثبت الخيريّة لهنّ باتصافهنّ بهذه الصفات، وإنّما تثبت لهن الخيريّة بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي (ص) وهي ثابتة فيهن؟

قلنا: المراد به «خيراً» منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكنّ وبينهنّ.

فإن قيل: لِمَ أخليت الصفات كلها عن الواو، وأثبتت بين الثيبات والأبكار؟

قلنا: لأنهما صفتان متضادتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو، ومن جعلها واو الثمانية فقد سَهَا، لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه.

فإن قيل: هذه الصفات إنما ذكرت في معرض المدح، وأي مدح في كونهن ثيّبات؟

قلنا التثييب مدح من وجه، فإن الثيِّبَ أَقْبَلُ للميل بالنقل، وأكثر تجربة وعقلاً، والبكارة مدح من وجه، فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾، بعد قوله سبحانه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾؟

قلنا: قيل: المراد بالأمر الأول الأمر بالعبادات والطاعات، وبالأمر الثاني الأمر بتعذيب أهل النار، وقيل هو تأكيد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [الآية ٨] ولم يقل توبة نصوحة؟

قلنا: لأن «فعولاً» من أوزان المبالغة الذي يستوي في لفظه الذكور والإناث كقولهم: امرأة صبور وشكور ونحوهما.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الآية ١٠] بعد قوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [الآية ١٠].

قلنا: مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان/٦٣] وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر] وهو مبالغة في المعنى المقصود، وهو أن الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره، وإن كان ذلك الغير في أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ ولم يقل سبحانه من القانتات؟

قلنا: معناه كانت من القوم القانتين: أي المطيعين لله تعالى، يعني رهطها وأهلها، فكأنه تعالى قال: وكانت من بنات الصالحين. وقيل إن الله تعالى لمّا تقبلها في النذر وأعطاها مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلاّ بهم، عاملها معاملة الذكور، في بعض الخطاب إشارة إلى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾، أو رعاية للفواصل.

المعاني المجازية في سورة «التحريم»(*)

في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [الآية ٤] استعارة ومعنى صَغَت قلوبكما: أي مالت وانحرفت.

قال النضر بن شميل[1]: يقال قد صَغَوْتُ إليه وصغَيت، وصغِيت، وأصغيت إليه، وهو الكلام. ولم تمل قلوبهما على الحقيقة، وإنما اعتقد قلباهما خلاف الاستقامة في إطاعة النبي (ص)، فحسُن أن يوصف بميل القلبين من هذا الوجه. وذلك كقول القائل: قد مال إلى فلان قلبي: إذا أحبّه. وقد نفر عن فلان قلبي إذا أبغضه. والقلب في الأمرين جميعاً بحاله، لم يخرج عن نياطه، ولم يُزَلْ عن مناطه.

وإنما قال سبحانه: قلوبكما، والخطاب مع امرأتين، لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع في عادة العرب. قال الراجز[2]:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو النضر بن شميل بن خرشة التميمي المازني وكان عالما بأيام العرب وراوية للحديث واللغة. اتصل بالخليفة المأمون العباسي فأ كرمه وقربه إليه. توفي بمرو سنة ٢٠٣ هـ.

(٢) لم يذكر القرطبي اسم هذا الراجز. وقد نسبه محقق «الجامع لأحكام القرآن» للشاعر الخطام المجاشعي، ونبّه على ذلك في هامش الجزء الخامس ص ٧٣ ولم يذكر ابن مطرف الكناني في «القرطين» اسم الشاعر واكتفى بقوله: أنشدني بعضهم وكذلك فعل العلامة محب الدين في «شرح شواهد الكشاف» ص ٣١٨.

والخطام اسمه بشر، كما كتب ذلك بخطه عبد القادر البغدادي، على هامش «المؤتلف والمختلف» للآمدي ص ١١٢ وهو شاعر إسلامي اشتهر بالرجز.

وَمَـهْـمَـهَـيْـنِ قُـذُفَـيْـنِ مَـرْتَـيْـنِ
ظـهـراهـمـا مـثـل ظـهـور التُرْسَيْـنِ

وقال الله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة/٣٨] وإنما أراد سبحانه قَطْع يمين السارق، ويمين السارقة. وذلك مشهور في اللغة.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [الآيـة ٨] استعارة. لأن «نصوحاً» من أسماء المبالغة. يقال: رجل نصوحٌ. إذا كان كثير النصح لمن يستنصحه. وذلك غير متأتٍ في صفة التوبة على الحقيقة. فنقول: إن المراد بذلك، والله أعلم، أنّ التوبة لمّا كانت بالغةً غايةَ الاجتهاد في تلافي ذلك الذّنب، كانت كأنها بالغةٌ غاية الاجتهاد في نصح صاحبها، ودلالته على طريق النجاة بها. فحسُن أن تسمّى «نصوحاً» من هذا الوجه.

وقال بعضهم: النَّصوح: هي التوبة التي يناصح الإنسان فيها نفسه، ويبذل مجهوده في إخلاص الندم، والعزم على ترك معاودة الذنب. وقرأ أبو بكر بن عياش[١] عن عاصم[٢]: (نُصُوحاً) بضم النون. على المصدر. وقرأ بقية السبعة (نَصوحاً) بفتح النون على صفة التوبة.

وفي قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [الآيـة ١٠] استـعـارة: لأن وصف المرأة بأنها تحت الرجُل ليس يراد به حقيقة الفَوْق والتَّحت، وإنما المراد أنَّ منزلة المرأة منخفضة عن منزلة الرجل، لقيامه عليها، وغلبته على أمرها. كما قال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ

= والقذف (بفتحتين وبضمتين): البعيد من الأرض. والمَرْت (بفتح الميم وسكون الراء): الأرض لا ماء فيها ولا نبات. والظهر: ما ارتفع من الأرض.

(١) أبو بكر بن عياش. واسمه شعبة، هو إمام في اللغة والقراءات، وكان راوي عاصم، وإماماً من أئمة السُّنة توفي سنة ١٩٣هـ. له ترجمة موجزة في «الأعلام»، و «النشر»، و«القراءات واللهجات» لعبد الوهاب حمودة، و«الفهرست» لابن النديم.

(٢) هو عاصم بن أبي النجود الكوفي الأسدي أحد القراء السبعة، كان ثقة في القراءات. وله اشتغال بحديث الرسول (ص). توفي سنة ١٢٧هـ وقد روى عنه أبو بكر بن عياش. وله ترجمة في «تهذيب التهذيب» و«الوفيات» و«الأعلام» للزركلي، و«القراءات واللهجات» لعبد الوهاب حمودة.

﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء/ ٣٤]. وكما يقول القائل: فُلانٌ الجندي تحت يَدَيْ فلان الأمير. إذا كان من شحنة عمله، أو منصرّفاً على أمره. وكما يقول الآخَر: لا آخذ رزقي من تحت يَدَي فلان. إذا كان هو الذي يلي إطلاق رزقه، وتوفية مستحَقّه، وذلك مشهور في كلامهم.

سورة المُلك

٦٧

أهداف سورة «المُلك»(*)

سورة الملك سورة مكية، آياتها ٣٠ آية، نزلت بعد سورة الطور.

لها من اسمها أكبر نصيب. إنها سورة تعرض بركات الله في هذه الدنيا، وقدرته العالية، وحكمته السامية: فهو الخالق الرازق المهيمن، المدبّر الحكيم المبدع الذي أبدع كل شيء خلقه.

وتلفت السورة نظر الإنسان الى خَلْق الأرض، وخلق السماء والطير والرزق، والسمع والأبصار، والموت والحياة، والزرع والثمار، والماء والهواء والفضاء.

وتَحثُّ القلب على التفكير والتأمّل، والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وتَهيج فيه البحث والاستنباط ليصل بنفسه الى التعرف على قدرة الله وجلاله، وسابغ فضله على الناس أجمعين.

مطلع السورة

مطلع السورة مطلع جامع يهزّ القلب هزّاً، وينبّه إلى بركات الله ونعمه وقدرته.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وعن حقيقة الملك والقدرة، تتفرّع مختلف الصور التي عرضتها السورة، ومختلف الحركات المغيبة والظاهرة، التي نبّهت القلوب إليها.

«فمن الملك ومن القدرة كان خلق

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما، وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح، وجَعْلُها رجوماً للشياطين، وكان إعداد جهنّم بوصفها وهيئتها وخَزَنَتها، وكان العلم بالسّرّ والجهر، وكان جَعْلُ الأرض ذَلولاً للبشر، وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذّبين، وكان إمساك الطير في السماء، وكان القهر والاستعلاء، وكان الرزق كما يشاء، وكان الإنشاء، وهبة السمع والأبصار والأفئدة، وكان الخلق في الأرض والحشر، وكان الاختصاص بعلم الآخرة، وكان عذاب الكافرين، وكان الماء الذي به الحياة؛ فكل حقائق السورة وموضوعاتها مستمدة من ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير»[1].

مع آيات السورة

[الآية ١]: تبدأ السورة بتمجيد الله سبحانه، بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فهو جلّ جلاله كثير البركة تفيض بركته على عباده، وهو المالك المهيمن على الخلق، وهو القادر قدرة مطلقة بلا حدود ولا قيود، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو على كلّ شيء قدير.

[الآية ٢]: ومن آثار قدرته، سبحانه، أنه خلق الموت السابق على الحياة واللاحق بها، والحياة التي تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة، لِيَمْتحن الإنسان بالوجود والاختيار والعقل والكسب، حتى يعمل في الحياة الأولى ليرى جزاء عمله في الحياة الآخرة.

[الآية ٣]: يوجّه القرآن النظر إلى خلق السماوات السبع، ويذكر أنها طبقات على أبعاد متفاوتة، وليس في خلقها خلل ولا اضطراب، وانظر اليها بعينيك فهل تستطيع أن تجد بها نقصاً أو عيباً؟

[الآية ٤]: تأمّل كثيراً في هذا الكون وشاهد عجائبه، فلن تجد فيه إلاّ الإبداع والتنسيق، والضبط والإحكام.

[الآية ٥]: لقد رفع الله السماء الدنيا، وخلق فيها الكواكب والنجوم زينة للسماء، وهداية للمسافرين، وهذه النجوم منها الباهر الزاهر والخافت، والمفرد والمجتمع؛ ولكلّ نجم مكان ومسار وطريق خاص، وهذه النجوم منها شُهُب تَنَزَّل على الشياطين الذين

(١) في ظلال القرآن ٢٩/ ١٨٤.

يحاولون استراق السمع، والتنصُّت على كلام الملائكة، فيُرْجَمون بالشهب التي تقتلهم أو تَخْبِلهم.

[الآية ٦]: ومن كفر بالله فإنه يستحقّ عذاب جهنّم، وبئس هذا المصير.

[الآية ٧]: إن جهنّم تتميّز غيظاً مِمّن عصى الله، وتغلي وتفور حنقاً على الكفّار.

[الآية ٨]: كلّما أُلقي جماعة من الكفّار في النار، سألهم خزنة جهنّم: ألم يأتكم رسول ينذركم هول هذا اليوم؟

[الآية ٩]: ويجيب الكفّار بأن الرسول قد جاءنا، ولكن العمى أضلّنا فكذّبنا بالرسول، وقلنا ما أنزل الله من وحي ولا رسالة، واتّهمنا الرسول بالضلال والكذب.

[الآية ١٠]: ولو حكّمنا عقلنا وسمْعَنا، لاهتدينا إلى الحقّ وآمنّا، وحفظنا أنفسنا من هذا الهلاك ومن هذا العذاب.

[الآية ١١]: لقد جاء هذا الاعتراف بالذنب متأخّراً في غير وقته، فسُحْقاً وعذاباً لأصحاب جهنّم، حيث لا يؤمنون إلاّ بعد فوات الأوان.

[الآية ١٢]: إنّ المؤمن يحسّ رقابة الله عليه، ويخشى عقابه وإن لم يره بعينه، أو يخشى ربّه وهو في خفية عن الأعين غائباً عن الناس. وله مغفرة لذنبه وأجر كبير جزاء عمله.

[الآية ١٣]: ما يفعله العبد مكشوف ظاهر أمام الله، وسِيَّانِ أَجَهَرْتُم بأقوالكم، أم أَسْرَرْتم بها، فالله مطلع عليها.

[الآية ١٤]: ألا يعلم الخالق الأشياء التي خلقها؟ وهو سبحانه عالم بخَفِيَّات الأمور ودقائقها، وهو اللطيف الخبير.

[الآية ١٥]: ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم إلى الأرض التي خلقها الله لهم وذلّلها، وأودعها أسباب الحياة.

فهذه الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة، ثم تدور حول الشمس بسرعة حوالى خمسة وستين ألف ميل في الساعة.

ومع هذه السرعة يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً.

وقد جعل الله الهواء المحيط بالأرض محتوياً للعناصر التي تحتاج إليها الحياة بالنِسَب الدقيقة اللازمة،

فنسبة الأُكسجين ٢١٪، ونسبة الأزوت أو النتروجين ٧٨٪، والبقيّة من ثاني أُكسيد الكربون وعناصر أخرى. وهذه النِسَب هي اللازمة لِقيام الحياة على الأرض.

وحجم الأرض وحجم الشمس وحجم القمر، وبُعد الأرض عن الشمس والقمر، ذلك كلّه بِنِسَبٍ لازمة لاستمرار الحياة على ظهر الأرض.

إن الحيوان يتنشّق الهواء فيمتصّ الأُكسجين ويلفظ ثاني أُكسيد الكربون، والنباتات تمتصّ ثاني أُكسيد الكربون، وبكيمياء سحرية يُغَذّي النبات نفسه، ويلفظ الأُكسجين الذي نتنفّسه، وبدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق؛ ولو كانت هذه المقايضة غير موجودة، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأُكسجين، أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً. ومتى انقلب التوازن تماماً ذَوَى النبات، أو مات الإنسان.

والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض، من معادن جامدة وسائلة، كلّها ترجع الى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لابَسَتْها، والله يتفضّل على الإنسان بتسخير الأرض والنبات والفضاء والهواء له: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الآية ١٥] وإلى الله النشور والرجوع في يوم الحساب.

[الآيتان ١٦ و١٧]: هذه الأرض الذّلول التي يأمن الانسان عليها ويهدأ ويستريح، تتحوّل، اذا أراد الله، إلى دابّة جامحة فيها الزلازل والبراكين، كما يمكن أن ينزل الله الصواعق والعواصف الجامحة التي تعصف بالانسان، وتدمّره: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد/١٣].

[الآية ١٨]: ولقد كذّب الكفّار السابقون رُسُلَهم، فعاقبهم الله أشدّ العقاب: لقد غرق قوم نوح، وأهلكت ثمود بصاعقة، وأهلكت عاد بريح عاتية، وأهلك فرعون وقومه بالغرق في بحر القلزم (البحر الأحمر).

إنّ الإنسان قويّ بالقدر الذي وهبه الله من القوة، ولكنّ هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه، ونواميسه من صنعه، وما يصيب الإنسان منها مقدّر مرسوم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

[الآية ١٩]: فليتأمل الإنسان أسراب الطير ترتفع وتنخفض، وتبسط أجنحتها

وتقبضها، في حركة ممتعة تدعو الى التأمّل والتدبّر، فقدرة الله ممسكة بهذا الطائر، في قبضه وبسطه، والله سبحانه ييسّر له أمره، ويهيّئ وينسّق ويعطي القدرة، ويرعى كلّ شيء في كلّ لحظة، رعاية الخبير البصير.

[الآية ٢٠]: مَنْ هذا الذي يحميكم من بطش الله وغضبه؟ من هذا الذي يدفع عنكم بأس الرحمن إلاّ الرحمن؟ إنّ الكافر في غرور، يظنّ أنه آمِنٌ بعيدٌ عن بطش الله به، وما هو ببعيد.

[الآية ٢١]: من يرزق البشر إنْ أمسك الله الماء؟ أو أمسك الهواء، أو أمسك الحياة عنهم؟ إنّ بعض النفوس تعرض عن الله في طغيان وتبجّح ونفور، مع أنها تعيش عالة على الله في حياتها ورزقها.

[الآية ٢٢]: ترسم الآية مشهد جماعة يمشون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق، ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات، مستقيمة الخطوات في طريق مستقيم لهدف مرسوم. ثم تستفهم أيهما أهدى؟

[الآية ٢٣]: لقد خلق الله الناس، وجعل لهم السمع ليسمعوا، والأبصار ليبصروا، والأفئدة ليتفكّروا في جليل قدرة الله؛ ولكنّ الإنسان قلّما يفكّر في شكر نعمة الله عليه، وامتثال أمره واجتناب نواهيه، والاعتراف له بالفضل والمنّة.

«ويذكر العلم أنّ حاسة السمع تبدأ بالأذن الخارجية، والصوت ينتقل منها إلى طبلة الأذن، ثم ينتقل إلى التّيه داخل الأذن؛ والتيه يشتمل على أربعة آلاف قوس صغيرة، متّصلة بعصب السمع في الرأس. وفي الأذن مئة ألف خليّة سمعية، وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة، دقة وعظمة تحيّر الألباب.

«ومركز حاسّة الإبصار العين، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الإبصار، وتتكوّن العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية»[1].

فأمّا الأفئدة، فهي هذه الخاصّيّة التي صار بها الإنسان إنساناً، وهي قوّة

(١) الله والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرازق نوفل، ص ٥٧.

الإدراك والتمييز، والمعرفة التي استُخْلِف بها الانسان في هذا الملك العريض.

[الآية ٢٤]: إنّ ربكم هو الذي بَرَأكم في الأرض، وبعثكم في أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانكم، وأشكالكم وصُوَركم، وكما بدأكم يعيدكم، وإليه تُحشرون وترجعون.

[الآية ٢٥]: ويسألون سؤال الشاك المُستَرِيب، عن يوم الجزاء والحساب.

[الآية ٢٦]: قل علم هذا اليوم عند الله، وما عليّ إلاّ البلاغ والبيان؛ أما العلم فعند صاحب العلم، والواحد بلا شريك.

[الآية ٢٧]: ولو أذِنَ الله لَرَأى البَشَرُ يوم الحساب واقعاً لا محالة، وعند هذه المفاجأة ورؤية الحساب والجزاء، سيظهر الحزن والاستياء عليهم، وتؤنّبهم الملائكة، وتقول لهم: هذا هو اليوم الذي كنتم تستعجلون وقوعه؛ والآية جرت على طريقة القرآن في عرض ما سيكون حاضراً مشاهَداً، بمفاجأة شعورية تصويرية، توقِفُ المكذّب والشاكّ وجهاً لوجه مع مشهد حاضر، لما يكذّب به أو يَشكّ فيه.

[الآية ٢٨]: رُوي أن كفّار مكّة كانوا يتربّصون بالنبيّ (ص) أن يَهْلِكَ فيستريحوا منه ومن دعوته، فقال لهم القرآن: سواءٌ أهلَكَ النبيّ (ص) حسب أمانيّهم، أو رحِمَهُ الله ومن معه، فلن يغيّر ذلك من وضعهم، لأنّ عذاباً أليماً ينتظرهم، ولن تُجِيرهم الأصنام، ولن يُجيرهم من الرحمن إلاّ الإيمان.

[الآية ٢٩]: إنّ المؤمنين في قربى مع الرحمن، فهم يؤمنون به ويتوكّلون عليه، وهم موصولون بالله منتسبون إليه، وسيتبيّن للكافرين مَنِ الضّالُّ ومَن المهتدي، ولِمَنْ تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

[الآية ٣٠]: أخبروني إنْ ذهب ماؤكم في الأرض، ولم تصل إليه الدِّلاء، مَنْ يأتيكم بماءٍ جارٍ نابع فائضٍ متدفق، تشربونه عذباً زُلالاً.

وهكذا تختم السورة بهذه اللمسة القريبة من القلب، تَذْكِرةً بفضلِ الله الذي أجرى المياه، ولو شاء لحرم الإنسان مصدر الحياة، ولا ينقذ الإنسان من الله إلاّ الله؛ قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات/٥٠].

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزآبادي: معظم مقصود السورة:

بيان استحقاق الله تعالى المُلْكَ، وخلق الحياة والموت للتجربة والاختبار، والنظر إلى السماوات للعبرة، واشتعال النجوم والكواكب للزينة، وما أعدّ للمنكرين من العذاب والعقوبة، وما وُعِد به المتّقون من الثواب والكرامة، وتأخير العذاب عن المستحقّين بالفضل والرّحمة، وحفظ الطيور في الهواء بكمال القدرة، واتّصال الرزق إلى الخليقة بالنوال والمنّة، وبيان حال أهل الضلالة والهداية، وتَعَجُّل الكفّار بمجيء يوم القيامة، وتهديد المشركين بزوال النعمة، بقوله جلّ وعلا: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾.

أسماء السورة

لسورة «تبارك» في القرآن والسنن سبعة أسماء:

«سورة «المُلْك » لمفتتحها، «والمُنْجية» لأنها تنجي قارئها من العذاب. و«المانِعة»، لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر. «والدافِعة» لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة عن قارئها. و«الشافِعة» لأنها تشفع في القيامة لقارئها، «والمُجادِلة» لأنها تجادل منكراً ونكيراً، فتناظرهما كي لا يؤذيا قارئها، والسابع: «المُخَلِّصة»، لأنها تخاصم زبانية جهنم، لئلا يكون لهم يد على قارئها»[1].

وفي شأن السورة قال رسول الله (ص) «إن سورة من كتاب الله ما هي إلاّ ثلاثون آية، شفعت لرجل فأخرجته من النار وأدخلته الجنّة، وهي سورة «تبارك»[2].

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي ١/٤٧٣.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسّنه غيرهما، انظر الترغيب والترهيب.

ترابط الآيات في سورة «المُلك»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة المُلك بعد سورة الطُّور، ونزلت سورة الطور بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الملك في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾. وتبلغ آياتها ثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى، وقد جمع فيها بين دعوتهم بالدليل ودعوتهم بالترهيب والترغيب، فاتّصل سياقها بما خُتمت به سورة التحريم من ترهيب المخالفين وترغيبهم؛ وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين.

الدعوة الى الإيمان بالله تعالى الآيات [١ ـ ٣٠]

قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾ فذكر أنّ المُلك بيده وحده، وأنه على كل شيء قدير، وأنه خلق الموت والحياة ليبلونا: أيّنا أحسن عملاً، وأنه خلق سبع سماوات طباقاً لا تَفَاوُتَ في خلقها ولا فُطور، وأنه زيَّن السماء الدنيا بمصابيح من الكواكب وجعلها رجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وأعدّ لهم خاصّةً عذاب السعير، وأعدّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

للكافرين عامّةً عذاب جهنم وبئس المصير. وقد فصّل السياق من هولها ما فصّل؛ ثمّ ذكر، سبحانه، أن الذين يخشَوْنه لهم مغفرة وأجر كبير، ليجمع بهذا بين الترهيب والترغيب؛ ثمّ هدّدهم بأنه يعلم سرّهم وجهرهم، فيحاسبهم على كلّ أعمالهم؛ واستدلّ على علمه بخلقه لهم، وأنه لطيف خبير؛ وذكر، على سبيل التهديد أيضاً، أنه مهّد لهم الأرض وهيّأ لهم فيها أسباب الرزق، فإذا أصرُّوا على كفرهم فإنهم لا يأمنون أن يَخْسِفَها بهم، أو يرسل حاصباً من الريح فيهلكهم؛ ثمّ أكّد ذلك التخويف بالمثال والدليل، وذكر المثال في ما فعله بمن أصرّ على الكفر قبلهم، وذكر الدليل في إمساكه الطير فوقهم؛ ثم ذكر أنه، إن أراد عذابهم، فإنه لا ينجيهم منه ما يملكون من قوّة وجند، وإن أَمسَكَ رزقه فإنه لا يرزقهم ما يتّخذون من آلهة؛ ثم ذكر أنهم يعلمون ذلك ولكنهم يَلِجُّون في عُتُوّ ونفور؛ وأيد ما ذكره من وضوح أمرهم بتمثيل حالهم بمن يمشي مليّاً على وجهه، وتمثيل حال المؤمنين بمن يمشي سويّاً على صراط مستقيم، ثم عاد السياق إلى ذكر الدليل، فذكر أنه، جلّ شأنه، هو الذي أنشأهم وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنه هو الذي ذَرَأهم في الأرض وإليه يحشرون.

ثم ذكر أنهم يقولون على سبيل الاستهزاء متى هذا الوعد بالعذاب؟ وأمر النبي (ص) أن يجيبهم بأنّ علمه عنده، وليس عليه إلاّ أن ينذرهم به، وبأنّهم حينما يرونه قريباً منهم تُساء وجوههم، ويقال لهم توبيخاً: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾ أي تطلبون؛ ثمّ أمره أن يخبرهم بأنه، إن مات هو ومن معه أو تأخّر أجلهم، فإنه لابد من عذابهم، ولا أحد يجيرهم منه؛ ثمّ ختم السورة بأمره أن يذكر لهم أنه آمن به هو ومن معه وتوكّلوا عليه؛ وأنّهم سيعلمون من هو في ضلال مبين: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾.

أسرار ترتيب سورة «المُلك»(*)

أقول: ظهر لي بعد الجهد: أنه، لمّا ذَكَر في آخر التحريم، امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتُتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الآية ٢]، مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كَفَرَتْ امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيَّيْن الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، ولم يَضُرُّها اتصالها بهذا الجبّار العنيد، لِمَا سبق في كلٍّ من القضاء والقدر.

ووجه آخر: وهو أن «تبارك» متصل بقوله في آخر الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الآية ١٢]. فزاد ذلك بَسْطاً في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾. [الآية ٥] وإنّما فصلت بسورة التحريم لأنّها كالتتمة لسورة الطلاق.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

لغة التنزيل في سورة «المُلك»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الآية ٨].

والكلام على النار، فكأنها كالمغتاظة على أهلها لشدة غليانها بهم.

وقوله تعالى: ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أي: تتقطّع. ويقولون: فلان يتميّز غيظاً ويتقصّف غضباً.

أقول: وأصل المَيْز التمييز بين الأشياء، ومِزتُ الشيء أميزه: عَزلته وفرزته.

وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران/ ١٧٩].

وامتاز القوم إذا تميَّز بعضهم من بعض.

أقول: وقد كنت تكلمت على قوله تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ [يس]: أي تميّزوا وانفردوا عن المؤمنين.

كما تكلّمنا على الفعل في العربية المعاصرة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «المُلك»(*)

قال تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ [الآية ٣] وواحدها «الطَبَق».

وقال: ﴿خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ تقول: «خَسَأْتُهُ» فـ «خَسَأ» فهو خاسئ.

وقال تعالى: ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الآية ١٩] بالجمع لأنّ «الطَيْر» جماعة مثل قولك «صاحِب» و«صَحْب» و «شَاهِد» و«شَهْد» و«رَاكِب» و«رَكْب».

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لأنهم كانوا يقولون، كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص/١٦] و﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت/٢٩] حينما رأوا العذاب.

وقال تعالى: ﴿مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ أي: غائراً، ولكنه وصف بالمصدر، ومنها قولنا: «لَيْلَةٌ غَمٌّ» أي: ليلة «غامَّة».

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنكاري.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «المُلك»(*)

إن قيل: ما الحكمة في تقديم الموت على الحياة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الآية ٢].

قلنا: إنما قدّم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أوّلاً. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: أراد به خلق الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة؛ ولو سُلّم أنّ المراد به الحياة في الدنيا، فالموت سابق عليها، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الآية ٣]، مع أنّ في خلقه سبحانه تفاوتاً عظيماً، فإنّ الأضداد كلّها من خلقه عزّ وجلّ، وهي متفاوتة، والسماوات أيضاً متفاوتة في الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض، وغير ذلك؟

قلنا: المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان في مخلوقه تعالى، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ أي: مِن شقوق وصدوع في السماء. فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ١٦] والله سبحانه وتعالى ليس في السماء ولا في غير السماء، بل هو سبحانه منزّه عن كل مكان؟

قلنا: من ملكوته في السماء، لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيّه واللوح المحفوظ، ومنها تُنَزّل أقضيته وكتبه وأوامره ونواهيه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

المعاني المجازية في سورة «المُلك»(*)

في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ استعارة. وقد مضت لها نظائرها فيما تقدّم. والمراد بذكر اليد هُهنا استيلاء المُلْك وتدبير الأمر. يقال: هذه الدار في يد فلان أي في ملكه. وهذا الأمر في يد فلانٍ أي هو المدّبر له.

فمعنى ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: هو مالك المُلك، ومدبّر الأمر.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ هو من الاستعارات المشهورة. والمراد بها، والله أعلم، أي: كرّر أيُّها الناظر بصرك إلى السماء مفكّراً في عجائبها، ومستنبطاً غوامض تركيبها، يرجعْ إليك بصرك بعيداً ممّا طلبه، ذليلاً بفوْتِ ما قدّره.

والخاسئ في قول قوم: البعيدُ. من قولهم: خَسَأْت الكلْبَ. إذا أبْعَدته. وفي قول قوم هو الذليل. يقال رجل خاسِ أي ذليل، وقد خسيَ أي خَضَع وذلّ. والحسير: البعير المُعْيى، الذي قد بَلغَ السير مجهوده، واعتصر عوده. فتلخيص المعنى أنّ البصر يرجع بعد سروحه في طلب مراده، وإبعاده في غايات مرامه، كالاًّ، مُعْيَى، بعيداً من إدراك بغيته، خائباً من نيل طلبته.

وفي قوله سبحانه، في صفة نار جهنّم، نعوذ بالله منها: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، استعارتان، إحداهما:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ والشهيق: الصوت الخارج من الجوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد، والكمد الطويل، وهو صوت مكروه السماع. فكأنه سبحانه وَصَف النار بأنّ لها أصْواتاً مقطّعة تَهُول مَنْ سمِعَها، ويُصعق مَنْ قرُبَ منها.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ من قولهم: تَغَيَّظتِ القِدْرُ: إذا اشتدّ غليانها، ثمّ صارت الصفة به مخصوصة بالإنسان المُغْضَب. فكأنه سبحانه وَصَف النار، نعوذ بالله منها، بصفة المَغِيظ الغضبان، الذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحدّ أن يبالغ في الانتقام، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام.

وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشديد الغيظ بأن يقولوا: يكاد فلان يتميّز غيظاً، أي تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد، من شدة اهتياج غيظه، واحتدام طبعه. فأجرى سبحانه هذه الصفة، التي هي أبلغ صفات الغضبان، على نار جهنّم لمّا وصفها بالغيظ، ليكون التمثيل في أقصى منازله، وأعلى مراتبه.

وفي قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الآية ١٥] استعارة: لأنّ (الذَّلول) من صفة الحيوان المركوب. يقال: بعيرٌ ذَلول، وَفَرسٌ ذَلُول: إذا أمكن مِنْ ظهره، وتصرَّف على مراده راكبُه.

وضدُّ ذلك وصفُهم للمركوب المانِع ظهرَه، والممتنِع على راكِبه بالصَّعب والمُصْعَب.

والمعنى: أنه سبحانه جَعَل الأرض للناس كالمركوب الذلول، ممكنة من الاستقرار عليها، والتصرُّف فيها، طائعة غير مانعة، ومذعنة غير مدافعة.

والمراد بقوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، أي في ظهورها وأعاليها، وأعلى كلّ شيء منكبٌ له.

وقال بعضهم: معنى ذلك أنه سبحانه، لمّا أصابنا في بعض الأحيان بالرّجفان والزلازل التي لا قرارَ معها على وجه الأرض، وخَلَق الجبال الخُشْنَ المَلامِس، الصعبة المسالك، لتكون للأرض ثقلاً وللخلق معقلاً، أعْلَمَنا سبحانه أنه، لولا ما أنعم به علينا من تسكين الأرض وتوطئتها، ونَفْي الحزُونة والوعُوث عن أكثرها

حتى أمكنتْ من التصرّف على ظهرها، لما كان عليها مثبت قدم، ولا مسْرح نَعَم. وقد استقصينا الكلام على ذلك في كتابنا الكبير.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ استعارة، المراد بها صفةُ مَنْ يخْبِط في الضلال، وينحرفُ عَن طريق الرّشاد. لأنهم يَصِفون مَنْ تلك حَالُهُ بأنّه ماشٍ على وَجْهه. فيقولون: فلان يَمشي على وجهه، ويَمضي على وجهه، إذا كان كذلك.

وإنّما شَبَّهوه بالماشي على وجهه، لأنّه لا ينتفع بمواقع بصره، إذ كان البصرُ في الوجه. وإذا كان الوجه مكبوباً على الأرض كان الإنسان كالأعمَى الذي لا يسلك جَدَداً، ولا يقصد سَدَداً.

ومن الدليل على أن قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ هو من الكنايات عن عَمَى البصر، قوله تعالى في مقابل ذلك: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾: لأن السّويّ ضدُّ المنقوص في خَلقه، والمبتلى في بعض كرائم جسمه.

سورة القَلَم

٦٨

أهداف سورة «القلم»(*)

سورة القلم سورة مكّيّة، وآياتها ٥٢ آية، نزلت بعد سورة العلق. وتشير الروايات الى أنها من أوائل السور نزولاً. ونلمح، من سياق السورة، أنها نزلت بعد الجهر بالدعوة الإسلامية في مكّة، حيث تعرّض النبي الأمين للاتهام بالجنون، فنزلت السورة تنفي عنه هذه التهمة، وتصف مكارم أخلاقه، وتتهدّد المكذّبين وتتوعدهم، وتذكر قصة أصحاب الجنة الذين منعوا زكاة الثمار والفاكهة، فأهلك الله جنّتهم، وكذلك يُهلك كلّ كافر معاند. وتوجهت السورة الى أهل مكة بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟ هل يستوي المستقيم والفاجر؟ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟ هل تطلب منهم أجراً كبيراً على تبليغ الرسالة؟ إنهم يستطيعون أداءه ولذلك يتثاقلون عن اتّباعك. ثم تذكر السورة طرفاً من قصة يونس (ع) من باب التسلية والاعتبار. وتختم السورة ببيان حقد الكافرين وحسدهم، حتّى إن عيونهم ينبعث منها شرار الحسد والغيظ، ويتّهمون النبيّ (ص) بالجنون، وما يحمل إليهم إلاّ الذكر والهداية للعالمين.

مع آيات السورة

[الآية الأولى] أقسم الله، سبحانه، بالقلم والدواة والكتابة، ليدل على عظيم شأنها في نشر الرسالات والدعوات والعلم والمعرفة، وكانت

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

أول آية من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العلق].

[الآيتان ٢ و٣] نفى القرآن عن النبي (ص) الاتّهام الكاذب بالجنون، ثم أثبت أنّ له أجراً كاملاً غير منقوص على تبليغ الرسالة.

[الآية ٤] ومدحه الله، عزّ وجلّ، بحسن الخلق، فقال سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④﴾. لقد كان خُلُقُهُ القرآنَ، وكان جامعاً للصفات الكريمة، والقدوة الحسنة، فقد اتّصف بالفصاحة والشجاعة والكرم والحلم، والأدب والعفّة والنزاهة والأمانة، والصدق والرحمة والتسامح واللّين وحسن المعاملة.

وكان حَسَنَ الصورة، معتدل القوام، جَيّاش العواطف، قويّاً في دين الله، حريصاً على تبليغ الرّسالة، قائداً ومعلماً ومربّياً وموجهاً، أميناً على وحي السماء.

وكانت عظمة أخلاقه في أنه تَمثّلَ القرآن سلوكاً وهَدْياً وتطبيقاً، فكان قرآناً متحرّكاً، يجد فيه الصحابة القدوة العملية، والتطبيق الأمين للوحي، فيقتدون بخلقه وعمله وهديه وسلوكه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ㉑﴾ [الأحزاب].

[الآيتان ٥ و ٦] فسيكشف الغد عن حقيقة النبيّ وحقيقة مُكَذّبيه، ويُثبت: أيُّهم الممتحن بما هو فيه، وأيُّهم الضالُّ في ما يدّعيه، وستبصر ويبصرون غلبة الإسلام، واستيلاءك عليهم بالقَتْل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاّء صاغرين.

[الآية ٧] إنّ ربك هو الذي أوحى اليك، فهو يعلم أنك المهتدي؛ والمكذِّبُ بك ضالٌّ عن طريق الهدى؛ وسيجازى كلّ إنسان بحسب ما يستحقّ.

[الآيتان ٨ و ٩] وقد ساوم الكفار النبيّ، وعرضوا عليه أن يعبدوا إلهه يوماً، وأن يعبد آلهتهم يوماً، فيصيب كلّ واحد بحظّه من إله الآخر، فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافرون]. وفي كتب السيرة أنّ الكفّار حرّضوا أبا طالب على أن يكف عنهم محمّداً، وأن ينهاه عن عيب آلهتهم، فقال

النبي (ص) لعمّه: والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهْلِكَ دونه.

وقد نزل الوحي ينهاه عن طاعة المكذّبين، وينهاه عن قَبول المساومة أو الحل الوسط، فإمّا إيمانٌ أو لا إيمان: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾: الإدهان هو اللين والمصانعة، أي وَدَّ المشركون لو تلين لهم في دينك بالركون إلى آلهتهم، وتتخلّى عن مهاجمتها، حتّى يتركوا خصامك وجدالك.

[الآيات ١٠ ـ ١٣] نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة، وقيل في الأخنس بن شريق، وكلاهما كان ممّن خاصموا رسول الله (ص) ولَجُّوا في حربه. والآيات تصِفُه بتسع صفاتٍ كُلُّها ذميم:

١ ـ فهو حَلاَّفٌ، كثير الحِلْف.

٢ ـ مَهِين، لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله.

٣ ـ وهو همّاز، يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة.

٤ ـ وهو مشّاء بنميم، يمشي بين الناس بالنميمة والفتنة والفساد.

٥ ـ وهو منّاع للخير، بَخيل ممسك؛ وكان يمنع الناس من الإيمان، ويهدّد من يُحِسُّ منه الاستعدادَ للإيمان.

٦ ـ وهو مُعْتَدٍ، متجاوز للحقّ والعدل؛ ثم هو معتد على النبيّ (ص) وعلى المسلمين.

٧ ـ وهو أثيم، كثير الآثام، لا يُبالي بما ارتكب ولا بما اجترح.

٨ ـ عُتُلٌ بعد ذلك، جامع للصفات المذمومة، وهو فظٌ غليظ جاف.

٩ ـ زنيم، أي لصيق في قومه متّهم في نسبه، أو معروف بالشرور والآثام.

[الآيات ١٤ ـ ١٦] تذكر هذه الآيات موقفه من دين الله، وجحودَه بِنِعْمَةِ الله عليه؛ فلأنّه صاحب مال وولد، إذا تلي عليه القرآن استهزأ بآياته، وسَخِر من الرسول (ص)؛ وهذه وحدَها تَعْدِل كلّ ما مرّ من وصف ذميم، ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾، أي سنجعل له سِمةً وعلامة على أنفه؛ والمراد أنّا سنبيّن أمره بياناً واضحاً حتّى لا يَخفَى على أحد، أو سنذلّه في الدنيا غاية الإذلال، ونجعله ممقوتاً مذموماً مشهوراً بالشرّ.

[الآيـات ١٧ ـ ٣٣]: هـذه الآيـات تتناول قصّة أصحاب الجنة، وهم قوم ورثوا عن أبيهم بستاناً جميلاً مثمراً يانعاً، وكان أبوهم يُخرج زكاة البستان، ويـوزّع مـقـداراً مـنـه عـلـى الـفـقـراء والمساكين، ولكنهم خالفوا أباهم ومنعوا حقّ الفقراء والمساكين، فعاقبهم الله بهلاك البستان، وكذلك يعاقب الكافرين يوم القيامة. وقد عرضتها الآيات عرضاً رائعاً يمثل خطوات القصة، وضعف تدبير الإنسان أمام تدبير الله الواحد الدّيّان، فَلْنَسِرْ مع الآيات.

[الآيتان ١٧ ـ ١٨]: لقد استقرّ رأي أصحاب الجنّة أن يقطعوا ثمرها عند الصباح، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين، وأقسموا على هذا، وعقدوا النيّة عليه.

[الآيـتـان ١٩ و٢٠]: فَطَرَقَ تـلـك الجنة طارق من أمر الله ليلاً، وهم نيام ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ أي كالبستان الذي صُرمت ثماره أي قُطعت، كأنّها مقطوعة الثمار، فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بثمرها كله.

[الآيات ٢١ ـ ٢٤]: فنادى بعضهم بعضاً في الصباح، وانطلقوا يتحدّثون في خفوت، زيادة في إحكام التدبير، ويوصي بعضهم بعضا أن يحتجزوا الثمر كله، ويحرموا منه المساكين.

[الآية ٢٥]: وغَدَوْا مصمّمين على حرد[1] المساكين ومنعهم وحرمانهم، قادرين عند أنفسهم على المنع وحجب منفعتها عن المساكين.

[الآيتان ٢٦و ٢٧]: فلمّا شاهدوا بستانهم ورأوه محترقاً أنكروه، وشكُّوا فيه وقالوا: أبستاننا هذا أم نحن ضالون طريقه؛ ثمّ تيقّنوا أنه بستانهم، وقد حاق بهم الحرمان والندم.

[الآيات ٢٨ ـ ٣٢]: وبعد أن حدث ما حدث، ألقى كلّ منهم تَبِعةَ ما وقع على غيره، وتشاحنوا، ثمّ تركوا التلاوم، واعترفوا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة، عسى أن يغفر الله لهم، ويُعَوِّضهم من الجنّة الضائعة.

[الآية ٣٣]: هكذا يكون عذاب من خالف أمر الله، وبَخِل بما آتاه، وأنعم به عليه، ومنع حقّ البائس الفقير؛ وفي الآخِرة عذاب أكبر من هذا العذاب،

---

(١) الحرد: المنع.

لكلّ جاحد بنعمة الله، ولكلّ مكذّب بالدّين والإيمان.

فليعلم ذلك المشركون وأهل مكة، وليحذروا عاقبة كفرهم وعنادهم. والقصة مَسُوقة لغاية معيّنة هي بيان عاقبة الجحود ومنع حقّ الله. إنّها عاقبة سيّئة في الدنيا وفي الآخِرة؛ وفي القصة تهديد للكافرين، وعظة للمؤمنين.

[الآية ٣٤]: وفي مقابل ما أُعِدّ للكافرين، بيان بالنعيم الذي أعد للمتقين.

[الآيات ٣٥ ـ ٤٧]: وعند هاتين الخاتمتين يدخل القرآن معهم في جَدَلٍ لا تعقيد فيه ولا تركيب، ويتحدّاهم، ويحرجهم بالسؤال تِلْوَ السؤال، عن أمور ليس لها إلاّ جواب واحد تَضْعُف فيه المغالطة؛ ويهدّدهم في الآخرة بمشهد رهيب، وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبّار القويّ الشديد.

[الآيات ٤٨ ـ ٥٠]: تُوَجّهُ الآيات النبي الكريم إلى الصبر على تكاليف الرسالة، والصبر على الأذى والتكذيب؛ وتَذْكُر له تجربة أخ له من قبل ضاق صدره بتكذيب قومه، وهو يونس (ع).

قصة يونس

أرسل الله يونس بن متى (ع) الى أهل قرية نينوى بجوار مدينة الموصل بالعراق، فاستبطأ إيمانهم وشقّ عليه تلكُّؤهم، وضاق صدره بتكذيبهم، فهجرهم مغاضباً لهم. وقاده الغضب الى شاطئ البحر، حيث ركب سفينة مع آخرين؛ فلمّا كانوا في وسط اللجة ثَقُلتِ السفينة، وتعرّضت للغرق، فأقرعوا بين الركاب للتخفّف من واحد منهم، لتخفّ السفينة، فكانت القرعة على يونس: فألقوه في اليم، فابتلعه الحوت، عندئذ نادى يونس ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ مملوءٌ غيظاً، لوقوعه في كرب شديد، في ظلمات البحر، وفي بطن الحوت، وفي وسط اللجة، نادى ربه قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، فتداركته نعمة من ربّه، فنبذه الحوت على الشاطئ مريضاً سقيماً، ثمّ يسّر الله له الأمور، واصطفاه وأوحى إليه، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا به؛ وجعله الله من الصّالحين، حيث ردّ إليه الوحي، وشفّعه في نفسه وقومه.

[الآيات ٥٠ ـ ٥٢]: وفي ختام

السورة نجد مشهداً للكافرين، وهم يتلقّون الدّعوة من الرسول الكريم، في غيظ عنيف، وحسد عميق، ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة، يُوَجّهونها إليه. قال جار الله الزمخشري: قوله تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾، يعني أنهم، من شدّة تخوّفهم، ونظرهم إليك سرّاً، بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يُزلّون قدمك، أو يُهلكونك، من قولهم: نَظَرَ إليَّ نظراً يكاد يصرعني، أو يكاد يأكلني، أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لَفَعَلَهُ.

وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية. وقد كان الكفار يريدون إصابة النبي (ص) بعيونهم وحسدهم، فعصمه الله تعالى وأنزل عليه الآية.

وقد صح في الحديث من عدة طرق: «إنّ العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر».

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر مرفوعاً: «إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً[1] ثمّ يتردّى منه».

وممّا يحفظ المؤمن من الحسد خمسة أشياء، هي:

١ ـ قراءة قل أعوذ بربّ الفلق، وقل أعوذ بربّ النّاس.

٢ ـ إخراج صدقة.

٣ ـ أن نقول: (لا اله الا الله وحده لا شريك له) ثم نقرأ قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ عشر مرات بعد صلاة المغرب، وعشر مرات بعد صلاة الصبح.

٤ ـ قراءة قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

٥ ـ وأهم شيء في الوقاية من الحسد: الثقة الكاملة والاعتقاد اليقيني بأن الله هو النّافع الضّارّ، وأنّ أحداً لن ينفعك إلاّ بإذن الله، ولن يضرّك إلاّ بمشيئة الله.

المعنى الإجمالي للسورة

بيان محاسن الأخلاق النبوية، وسوء

(١) الحالق: الجبل المرتفع.

أخلاق بعض الكفار، وعذاب مانِعِي الزكاة، وضرب المثل بقصة أصحاب الجنة، وتقريع المجرمين وتوبيخهم، وإقامة الحجّة عليهم، وتهديد المشركين المكذّبين بالقرآن.

وأمر الرسول (ص) بالصبر، والإشارة إلى حال يونس (ع) في قلّة الصبر.

وقصد الكفار رسول الله (ص) ليصيبوه بالعين في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

أسماء السورة: للسورة اسمان: سورة ن، وسورة القلم؛ والاسم الثاني أشهر من الأول.

ترابط الآيات في سورة «القلم»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة القَلَم بعد سورة العَلَق، وكانت سورة العلق أوّل ما نزل من القرآن، فيكون نزول سورة القلم فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

لمّا نزل جبريل على النبي (ص) بغار حِراء، رجع إلى خديجة متغيّر الوجه، فقالت له: مالك؟ فذكر لها نزول جبريل عليه، فذهبت به إلى ابن عمّها وَرَقَة بن نوفل، وكان نصرانياً؛ فسأل النبي (ص) عما حصل له فأخبره، فقال له: والله لئن بقيتَ على دعوتك لأنصرنّك نصراً عزيزاً. ووقعت تلك الواقعة في ألسنة قريش فقالوا إنه لمجنون؛ فنزلت هذه السورة لتثبيته، وإنذارهم بالعذاب على كفرهم، وبهذا تشارك السورة السابقة في غرض الإنذار، ويظهر وجه المناسبة في ذكرها بعدها.

تثبيت النبي (ص)
الآيات [١ ـ ٥٢]

قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ فأقسم، جلّ وعلا، بهذا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

على أنّ النبيّ (ص) غير مجنون كما يزعمون، وأن له أجراً غير ممنون، وأنه على خُلق عظيم؛ ثمّ ذكر له أنّه سيبصر ويبصرون من هو المجنون؛ وأنه، سبحانه، هو الذي يعلم الضالّ والمهتدي. ونهاه أن يطيع منهم كل همّاز مشّاء بالنّميمة منّاع للخير، إلى غير هذا ممّا ذكره من صفاتهم؛ ومنها أن أحدهم يعطيه الله المال والبنين فيقابل هذا بتكذيب آياته أنفةً وحَميةً؛ ثمّ ذكر أنه سيصيبه بما يذهب بأنفته وحميته ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾؛ وأنه يختبرهم بأموالهم وبنيهم كما اختبر أصحاب الجنّة حين أقسموا لَيَجْنُونها في الصّباح، ولم يقولوا إن شاء الله، فأصابها بآفة أتت على أثمارها. وقد ذهبوا إليها في الصباح، وهم يتنادَوْنَ ألاّ يدخلَنّها مسكين عليهم؛ فلما رأوها اعترفوا بضلالهم، ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾، ثمّ ذكر، سبحانه، أنّ عذاب أولئك المشركين في الدنيا سيكون كعذاب أصحاب هذه الجنّة، ولهم عذاب في الآخرة أكبر من عذاب الدنيا؛ وأنّ للمتّقين عنده جنات النعيم. وأنكر أن يسوي في هذا بين المسلمين والمجرمين، وأنكر عليهم أن يحكموا بأنّهم في هذا مثلهم؛ وذكر أنّه لا علم عندهم ولا أيْمان تثبت هذا الحكم؛ وأنه إذا أمكن شُركاءهم أن يضمنوا لهم هذا، فَلْيأتوا بهم يوم يُكْشَف عن ساق، ويُدْعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون، وقد كانوا يُدعون إليه وهم سالمون فيأبَوْن.

ثم ختمت السورة بأمر الله تعالى النبي (ص) أن يتركه هو ومن يكذب بما أنزل عليه؛ وذكر له أنه سيملي لهم ليأخذهم بعذابه. ثمّ أمره أن يصبر لحكمه ولا يضيق به كما ضاق يونس (ع) حينما التقمه الحوت، لأنّه لولا أنّه تداركه بنعمته لأخرجه من بطنه وهو مذموم، ولكنه اجتباه وجعله من الصالحين. ثمّ ذكر أن أولئك المشركين إنّما يحملهم أشدّ العداوة عند سماع القرآن على قولهم إنه لمجنون ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

أسرار ترتيب سورة «القلم»(*)

أقول: لمّا ذكر سبحانه في آخر «تَبَارَكَ» التهديد بتغوير الماء[1]، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة يطاف عليه فيها، وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتّى ظنوا أنّهم ضلّوا الطريق[2]. وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة، فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾. وقال هناك: ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الآية ٣٠]، إشارة إلى أنه يسري عليه، في ليلة، كما سرى على الثمرة، في ليلة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) ورد في قوله تعالى من سورة «الملك»: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾. وتغوير الماء: جفافه.

(٢) جاء هذا في سورة القلم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الآية ١٧] إلى ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

مكنونات سورة «القلم»(*)

١ - ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾.

قال السُّدِّي: نزلت في الأَخْنَس بن شَريق.

وقال مُجاهِد: في الأَسود بن عبد يغوث. أخرجهما ابنُ أبي حاتم.

وقيل: في الوليد بن المُغِيرة. حكاه الكَرماني.

٢ - ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية ١٧].

كانت بصروان قرية باليمن بينها وبين صنعاء ستة أميال. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جُبير.

٣ - ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ [الآية ٢٢].

قال مُجاهِد: كان عنباً. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «القلم»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

العُتُلُّ: الغليظ الجافي، وهو من: عَتَلَه إذا قاده بعنف وغِلْظَة.

والزَّنيم: الدَّعِيّ، قال حسان:

وأنتَ زنيمٌ نيطَ في آل هاشم كما
نيطَ خلفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

المقصود بالعُتُلّ والزنيم وبنعوت أخرى في الآيات السابقات، هو الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان موسراً، وكان له عَشَرَةُ بنين، فكان يقول لهم: من أسلم منعته رِفْدي.

أقول: ولا نعرف «العُتُلّ» في العربية المعاصرة، ولكننا نعرف الزنيم في اللغة السائرة، وهي من ألفاظ السَّبّ والشتم لدى العامة، والزنيم عندهم الفاسد الساقط المروءة، وقد يكون ابن زِنى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَالصَّرِيمِ﴾، أي: كالمصروم، وقيل: الصريم الليل، أي: احترقت واسودَّت. وقيل النهار، أي: يبست وذهبت خضرتها.

أقول: والصريم ضرب من النبات ذو شوك، يعرفه أهل الزرع في العراق.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: يتسارّون فيما بينهم.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

والحَرْدُ: المنع: وقُرئ (على حَرَد) بفتحتين، أي: على غيظ وغضب.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أقول: في الآية إشارة إلى مَثَل يضرب في شدّة الأمر، وصعوبة الخطب، ويتمثل في الكشف عن الساق والإبداء عن الخِدام، (جمع خَدَمَة وهي الخَلْخَال). وأصله في الروع والهزيمة، وتشمير المخدّرات عن سوقهن في الهرب وإبداء خِدامهن، قال حاتم:

أخو الحربِ إن عضّتْ به الحربُ عَضّها
وإن شَمّرت عن ساقها الحربُ شَمّرا

والمراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

واستدرَجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجةً فدرجة، حتّى يورّطه فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: من الجهة التي لا يشعرون منها أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أُمهلهم.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

المَغْرَم: الغَرامة، أي: لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً، فيثقُل عليهم حَمْل الغرامات في أموالهم، فَيُثبّطهم ذلك عن الإيمان.

المعاني اللغوية في سورة «القلم»(*)

قال تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝﴾ أي «أيُّكم المَفْتُون».

وقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية ٥١] وهذه «إنْ» التي تكون للإيجاب، وهي في معنى الثقيلة، إلاّ أنّها ليست بثقيلة، لأنك إذا قلت: «إنْ كانَ عبدُ اللهِ لَظَرِيفاً» فمعناه «إنْ عبدُ اللهِ لَظريفٌ قبلَ اليَوْمِ» فـ «إنْ» تدخل في هذا المعنى، وهي خفيفة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «القلم»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ أي ولا يقولون إن شاء الله، فسمّى الشرط استثناء؟

قلنا: إنّما سماه استثناء لأنه في معناه، فإنّ معنى قولك «لأخرجن إن شاء الله»، و«لا أخرج إلاّ أن يشاء الله» قولٌ واحد. وقال عكرمة: المراد به حقيقة الاستثناء: أي أنهم لا يستثنون حقّ المساكين، والجمهور على الأول.

فإن قيل: لِمَ سمّى أوسطهم الاستثناء تسبيحاً، فقال كما ورد في التنزيل ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾، أي لولا تستثنون؟

قلنا: إنّما سماه تسبيحاً لاشتراكهما في معنى التعظيم، لأنّ الاستثناء تفويض إليه، وإقرار، بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلاّ بمشيئته سبحانه؛ والتسبيح تنزيه عن السوء. الثاني: أنه كان استثناؤهم قول «سبحانَ الله». الثالث: أن معناه لولا تنزّهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ [الآية ٤٣]، ولا تكليف في الدار الآخرة؟

قلنا: لا يدعون إليه تكليفاً وتعبّداً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركه في الدنيا.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾، وهم إنّما كانوا يدعون إلى الصلاة. فإن المراد بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن حينما يقول: حَيَّ على الصلاة؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا: عَبَّر سبحانه عن الصلاة بالسجود لأنه من أركانها، بل هو أعظم الأركان وغايتها، كما عبّر عنها بالركوع وبالقرآن.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾، أي صحيحون، مع أنّ الصحة ليست شرطا لوجوب الصلاة؟

قلنا: وجوب الخروج إلى الصلاة بالجماعة مشروط بالصحة، وهو المراد.

المعاني المجازية في سورة «القلم»(*)

في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ استعارة. والمراد بها الكنايةُ عن هَول الأمر وشدّته، وعظم الخطب وفظاعته: لأنّ من عادة الناس أن يشمّروا عن سُوقِهم عند الأمور الصّعبة، التي يُحتاج فيها إلى المُعاركة، ويُفزَع عندها إلى الدّفاع والممانعة. فيكون تشمير الذيول عند ذلك أمكنَ للقراع، وأصدق للمِصَاع.

وقد جاء في أشعارهم ذكر ذلك في غير موضع. قال قيس[1] بن زهير بن جذيمة العَبْسي:

فـإن شـمَّـرت لـك عـن سـاقـهـا
فَـوَيْـهـا ربـيـعُ فـلا تـسـأم[2]

وقال الآخر[3]:

قـد شـمَّـرت عـن سـاقـهـا فـشُـدُّوا
وجـدَّت الـحـرب بـكـم فـجِـدُّوا

وفي قوله سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) قيس بن زهير هو صاحب الفَرَسَيْن: داحس والغبراء بسببهما قامت الحرب بين عبس وذبيان ودامت أربعين سنة. وتجد أخباره في «اللسان» و «أيام العرب» و«الشعر والشعراء» و«شعراء النصرانية» وغيرها.

(2) هكذا بالأصل. وفي «شعراء النصرانية» ص ٩٢٧ يروى هكذا:

فـإن شـمـرت لـك عـن سـاقـهـا فـويـهـا ربـيـع ولـم يـسـأمـوا

(3) هو رويشد بن رميض العنبري المعروف بشريح بن ضبيعة، كما في هامش «العقد الفريد» ج ٤ ص ١٢٠ طبع لجنة التأليف والترجمة. وفي «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي، بتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون أن اسمه رشيد بن رميض، لا رويشد. ويرجح الأستاذ هارون أنه العنزي، لا العنبري، نسبة إلى بني عنزة، ص ٣٥٤.

بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ استعارة. ولها نظائر في القرآن. منها قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل] وقوله سبحانه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر]. ومعنى ذلك أن الكلام خَرَج على مذهبٍ للعرب معروف، وغرضٍ مقصود. يقول قائلهم لمخاطبه إذا أراد تغليظ الوعيد لغيره: ذَرْني وفلاناً فستعلَم ما أنزلهُ به. فالمراد إذن بهذا الخطاب النبي (ص). فكأنه تعالى قال له: ذَر عقابي وهؤلاء المكذّبين. أي اترك مسألتي في التخفيف عنهم، والإبقاء عليهم. لأنّ الله سبحانه لا يجوز عليه المنع، فيصحّ معنى قوله تعالى لنبيِّه (ص): ذَرْني وكذا، لأنه المالك لا ينازَع، والقادر لا يُدافَع.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ استعارة. والمراد بالإزلاق هٰهنا: إزلالُ القدم حتّى لا يستقر على الأرض. وذلك خارج على طريقة للعرب معروفة. يقول القائل منهم: نظَر إليَّ فلانٌ نظَراً يكاد يَصْرَعني به. وذلك لا يكونُ إلا نظر المقْتِ والإبغاض، وعند النزاع والخصام. وقال الشاعر:

يتقارضون إذا التَقَوْا في موقفٍ
نظَراً يُزيل مواقفَ الأقدامِ

وقد أنكر بعضُ العلماء أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [الآية ٥١] الإصابة بالعين، لأنّ هذا من نظر السخط والعداوة، وذلك من نظر الاستحسان والمحبّة.

سورة الحَاقّة

٦٩

أهداف سورة «الحاقّة»(*)

سورة الحاقّة سورة مكّيّة، آياتها ٥٢ آية، نزلت بعد سورة الملك.

هي نموذج للسورة المكّيّة، التي تستولي على القلوب، بأهوالها ومشاهدها، وأفكارها المتتابعة، وفواصلها القصيرة.

في بداية السّورة نلْحظ هذه الرهبة مِن اسْمها، الحاقّة، لأنّ وقوعها حقّ يقينيّ؛ ثمّ تصف مصارع المكذبين، من ثمود الى عاد الى فرعون؛ ثمّ تنتقل الى مشاهد القيامة وأهوالها وصورها، وتَنَوُّع الناس إلى فريقين، فريق يأخذ كتابه باليمين، وفريق يأخذ كتابه بالشّمال؛ ويلقى كل فريق ما يستحق.

وفي المقطع الأخير من السورة، تؤكّد الآيات صدق رسول الله، وتنفي عنه تُهَم المشركين، وتثبت أنّ القرآن حقّ يقين، من عند رب العالمين.

مع آيات السورة

[الآيات ١ ـ ٣]: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾.

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة، ومن ثَمّ تبدأ السورة باسم من أسماء القيامة: (الحاقّة): أي الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، وهي آتية لا ريب فيها، من «حَقَّ يحِق»، بالكسر، أي «وَجَبَ».

وهذا المطلع يوحي بقدرة القدير، وضعف الإنسان فهو لن يُتْرك سدى، بل أمامه يوم كلّه حقّ وعدل.

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والألفاظ في السورة توحي بهذا المعنى وتؤكده:

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ما هي؟ أيّ شيء هي؟ أي حقها أن يستفهم عنها لِعِظَمِها، وهذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة في الغرض الذي يساق له.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ أيّ شيء أعلمك ما هي، فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقات، لِعِظَم شأنها، ومدى هولها وشدّتها؛ ثم يسكت الأسلوب فلا يجيب عن هذا السؤال لتذهب النفس في هوله وشدته كل مذهب.

ومن أسماء القيامة الحاقة، والقارعة؛ لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

[الآيتان ٤ ـ ٥]: تصف ما أصاب ثمود من العذاب؛ وثمود كانت تسكن الحِجْر في شمالي الحجاز، بين الحجاز والشام، وقد كذبوا نبيّهم، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم؛ وسُمّيت الصيحة هنا طاغية، لأنها جاوزت الحدّ في الشدّة؛ وسمّيت، في سور أخرى، بالصاعقة وبالرجفة والزَّلْزَلة؛ وهي صفات للصيحة تبيّن أثرها فيمن نزلت بهم.

[الآيات ٦ ـ ٨]: تصف قصّة هلاك عاد، وقد كذبوا رسولهم، فأرسل الله عليهم ريحاً باردة عاتية، استمرّت سبع ليالٍ وثمانية أيام، ﴿حُسُومًا﴾ متتابعة، حتى هلك القوم أجمعون؛ وقد كانوا يسكنون بالأحقاف، في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت، وكانوا أشدّاء بطّاشين جبّارين؛ وكان الجزاء من جنس العمل.

[الآيتان ٩ ـ ١٠] : تصفان مجيء فرعون ومَنْ تَقَدَّمه من الأمم التي كفرت بآيات الله، كقوم نوح وعاد وثمود، والقرى التي ائتفكت بأهلها، أي انقلبت بهم، وهي قرى قوم لوط. فقد عَصَى هؤلاء رسل الله، الذين أُرسلوا إليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

[الآيتان ١١ ـ ١٢]: ترسمان مشهد الطوفان والسفينة الجارية، وتشيران بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حينما كذّبوا، وتَمْتَنَّان على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها. والمشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته.

[الآيات ١٣ ـ ١٨]: تصف أهوال القيامة وأحداثها، فإسرافيل ينفخ في الصور، وتُسَوّى الأرض والجبال،

وتدكّ كالكرة فيستوي عاليها بأسفلها؛ عندئذ نزلت النازلة، وجاءت القيامة. وقد انفرط عقد الكون المنظور، واختلّت روابطه وضوابطه التي تمسك به، فترى السماء مشقّقة واهية مسترخية، ساقطة القوة بعد ما كانت محكمة. والسماء مسكن الملائكة، فاذا انشقت تعلّق الملائكة بجوانبها وأطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية: ثمانية أملاك، أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية أصناف، أو طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله، ولا ندري نحن من هم ولا ما هم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ فالكلّ مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف المصير.

ألا إنه لأمر عصيب، وقوف الانسان عُريان الجسد، عُريان النفس، عُريان المشاعر، عُريان التاريخ، عُريان العمل، ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع.

[الآيات ١٩ ـ ٢٤]: تصف مشهد المؤمن الناجي، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة، وتملأ الفرحة جوانحه فيهتف: اقرأوا كتابي فأنا من الناجين، لقد أيقنت بالجزاء والحساب. فيعيش حياة ناعمة، في جنّة عالية، ثمارها قريبة التناول، ويقول لهم ربّهم جل ثناؤه: كلوا وتمتّعوا جزاء عملكم السابق، وطاعتكم لربكم.

[الآيات ٢٥ ـ ٢٩]: تصف حسرة المشرك، وبؤسه ويأسه، فهو يتمنّى أنّه لم يأت للموقف، ولم يُؤتَ كتابَهُ، ولم يَدْرِ ما حسابُه، كما يتمنّى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلاً، فلا يعود بعدها شيئاً.

ثمّ يتحسّر أنْ لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه، فلا المال أغنى أو نَفَعَ، ولا السلطان بَقِيَ أو دفع، والرّنّة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة، وفي ياء العلة بعد المد بالالف، في تَحَزُّنٍ وتَحَسُّرٍ، تُشْعر بالحسرة والأسى والحزن العميق.

[في الآيات ٣٠ ـ ٣٢]: يقال لملائكة العذاب خذوه إلى جهنّم، فيبتدره سبعون ألف ملك، كلّهم يبادر إلى جعل الغلّ في عنقه، ويتقدّم

ليصطلي نار الجحيم ويُشوَى بها، ويدخل في سلسلة طولها سبعون ذراعاً تُلفّ على جميع جسمه؛ وذراع واحد من سلاسل النار تكفيه، ولكن الآية تكشف عن شدة العذاب وهوله، حفظنا الله من عذاب النار.

[الآيتان ٣٣ ـ ٣٤]: تذكّران أسباب العذاب والسعير، فقد خلا قلب هذا الكافر من الإيمان بالله، كما خلا قلبه من الرحمة بالعباد، ومن العطف على المساكين، ومن الحثّ على أطعامهم والبرّ بهم.

[الآيات ٣٥ ـ ٣٧]: تخبرنا أنّ الكافر لا يجد له صديقاً ولا حميماً يؤنسه، ولا يأكل الا غِسالة أهل جهنم من القيح والصديد، وهو طعام لا يأكله إلاّ المذنبون، المتصفون بالخطيئة، فليتّق الله كلّ غنيّ في ماله، وليعلم أنّ للمساكين والأرامل والشيوخ والأطفال حقاً في هذا المال، وسيترك المال لورثته ويسأل هو عن زكاته.

[الآيات ٣٨ ـ ٤٣]: تبيّن لنا أنّ الوجود أضخم بكثير ممّا يرى البشر، والكون مملوء بعقول فعّالة غير عقولنا.

«إنّ الإنسان قد يكون جهازاً، ولكن من الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه، والعلم لا يعلل من يتولى إدارته، وكذلك لا يزعم أنه مادي. لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله سبحانه قد منح الإنسان قبساً من نوره»[١].

والآيات تُقسم بما تشاهدون من المخلوقات وبما غاب عنكم. وقال عطاء: ما تبصرون من آثار القدرة، ومالا تبصرون من أسرار القدرة.

إن القرآن كلام الله ومنهج الله وشريعة الله، وليس قولَ شاعر ولا قولَ كاهن؛ انّما هو قول رسول أرسل به من عند الله، فحمله الى عباد الله بأمانة وإخلاص في تبليغ الرسالة.

في [الآيات ٤٤ ـ ٤٦]: أن قدرة الله قدرة بالغة، ولو تقوّل محمّد بعض الأقاويل، لعاجلناه بالعقوبة، وأزهقنا روحه، فكان كمن قُطِعَ وَتينه. وهذا تصوير للهلاك بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، إذ يأخذه السيّاف بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه.

(١) آ. كريسي موريسون. رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك. في كتابه المترجم. بعنوان «العلم يدعو الى الايمان».

[في الآية ٤٧]: أنّ أحداً لا يمنعنا من عقوبة محمد، والتنكيل به اذا افترى علينا.

[الآيات ٤٨ ـ ٥٢]: تخبرنا أنّ القرآن يذكّر القلوب التقيّة فتتذكّر أنّ الحقيقة، التي جاء بها، كامنة فيها؛ فهو يثيرها ويذكّرها فتتذكّر؛ أما المطموسةُ قلوبُهم فهم يُكَذِّبون بهذا القرآن، والقرآن حجة على الكافرين في الدنيا، وحسرة عليهم اذا رأوا عذاب الآخرة.

وهذا القرآن عميق في الحقّ، عميق في اليقين، تنزيلٌ من ربّ العالمين، فعلينا أن نعظّم الله، وأن ننزّهه ونجلّه، ونعترف له بالقدرة والعظمة ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي للسورة

الخبر عن صعوبة القيامة، وهلاك الأمم المكذّبة لِرُسُلها، وذِكْرِ نفخة الصور، وانشقاقِ السموات، وحال السّعداء والأشقياء في وقت قراءة الكتب، وذلّ الكفار مقهورين في أيدي الزبانية، وإثباتِ أن القرآن العظيم وحْيٌ من عند الله سبحانه، وليس بقول شاعر ولا كافر، والأمرِ بتسبيح الركوع[1] في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) أنظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. للفيروزآبادي.

ترابط الآيات في سورة «الحاقّة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الحاقة بعد سورة المُلك، ونزلت سورة المُلك بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة، فيكون نزول سورة الحاقة في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ وتبلغ آياتها اثنتين وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إثبات يوم القيامة، وبيان ما فيه من ثواب وعقاب. وبهذا يكون سياقها في سياق الإنذار الذي جاء في السورة السابقة، وهذا هو وجه المناسبة بين السورتين.

إثبات يوم القيامة
الآيات [١ ـ ٥٢]

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ والحاقة الساعة الثابتة التي لا ريب فيها. وقد ذكر، سبحانه، أن ثمود وعاداً كذّبا بها فأهلكا بما أهلكا به، وأنّ فرعون ومن قبله والمؤتفكات (قوم لوط) كذّبوا بها فأُخذوا أَخْذة رابية؛ وأنه، جلّ وعلا، نجّى من آمن بها من قوم نوح حينما طغى الماء، فحملهم في الجارية، وأغرق من كذّب بها، ليجعلها تذكرة لنا وتَعِيَهَا آذاننا، فإذا جاء يومها بأهواله

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

من النّفخ في الصّور وغيره، يُعرض الناس على ربّهم: فأمّا من أوتي كتابَهُ بيمينه، فينال ما ذكره من الثواب، وأمّا من أوتي كتابه بشِماله، فينال ما ذكره من العقاب؛ ثم أقسم عزّ وجلّ، بما يبصرون وما لا يبصرون من خلقه، أنّ ذلك قول رسول كريم، لا يشكّ في صدقه، وليس بقول شاعر ولا كاهن يغلب الكذب فيه. ثم ذكر سبحانه أنه لو تقوّله الرسول (ص) عليه لأخذ بيمينه وقطع عنقه، ولم يمكّن أحداً أن يحجزه عنه؛ ثم ذكر تعالى أن القرآن تذكرة للمتّقين، وأنه يعلم تكذيبهم له فيعاقبهم به ويجعله حسرة عليهم، وأنّه لَحَقُّ اليقين: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾.

أسرار ترتيب سورة «الحاقّة»(*)

أقول: لمّا وقع في سورة «ن»، أي «القلم»، ذكر يوم القيامة مُجْمَلاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [الآية ٤٢]، شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم، وشأنه العظيم(*).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(*) وذلك من أول السورة الى قوله: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

مكنونات سورة «الحاقّة»(*)

١ - ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية ٧].

قال الرَّبيع بنُ أنس: كان أوّلها الجُمُعَةُ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٢ - ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ [الآية ١٧].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ زيد قال: لم يُسَمْ مِنْ حَمَلَةِ العرش إلاّ إسرافيل. قال: وميكائيل ليس من حَمَلَةِ العرش.

وأخرج عن أبي الزاهرية قال: أنبئتُ أنّ لبنان أحد حَمَلَةِ العرش الثمانية يوم القيامة.

وذَكَرَ يحيى بن سَلاَّم، قال: بلغني أن روفيل من حملة العرش.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «الحاقّة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الآية ١٧].

أقول والأرجاء جمع رَجا، وهو الجانب.

ولا نعرف من هذا إلا الجمع، أمّا المفرد فغير معروف في الاستعمال.

ونظير «الأرجاء» هذه «آناء» في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه/ ١٣٠].

والآناء جمع إِنًى.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الحاقّة»(*)

قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ١٢﴾ لأنك تقول: «وَعَتْ ذاكَ أُذُني»، و«وَعَاهُ سَمْعِي»، و«أَوْعَيْتُ الزادَ»، و«أَوْعَيْتُ المَتاعَ» كما قال الشاعر[1] [من البسيط، وهو الشاهد الحادي والسبعون بعد المئتين]:

الخَيْرُ يَبْقَى وإِنْ طالَ الزَّمانُ بِهِ[2]. والشَّرُّ أخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ مِنْ زادِ

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ١٣﴾: فالفعل وقع على النفخة إذ لم يكن قبلها اسمٌ مَرْفوع.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الآية ١٧] وواحدها «الرَّجا» وهو مقصور.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦﴾ جُعِل، والله أعلم، من «الغَسْل» وزيد الياء والنون، بمنزلة «عفرين» و«كُفْرِين».

وقال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾ على المعنى، لأنّ معنى (أحد) معنى جماعة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو عبيد بن الأبرص. ديوانه ٤٩. واللسان «وعي».

(٢) من الديوان واللسان والصحاح «وعي».

لكل سؤال جواب في سورة «الحاقّة»(*)

قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الآية ٦]، ولم يقل «صرصرة»، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ (عاتية) وهو صفة لمؤنث، لأنها الشديدة الصوت أو الشديدة البرد؟

قلنا: لأنّ الصرصر وصف مخصوص بالرّيح لا يوصف به غيرها، فأشبه باب حائض وطامث وحامل، بخلاف عاتية فإنّ غير الريح من الأسماء المؤنّثة يوصف به.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ [الآية ٧] أي في تلك الليالي والأيّام، والنبي (ص) مارآهم ولا يراهم فيها؟

قلنا: «فيها» ظرف، لقوله تعالى (صرعى)، لا لقوله تعالى (فترى)، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار، فصار المعنى فتعلمهم صرعى في تلك الليالي والأيام، بإعلامنا حتّى كأنّك تشاهدهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ والمراد بها هنا النفخة الأولى، وهي نفخة الصَّعْق، بدليل ماذكر بعدها من فساد العالم العلويّ والسفليّ؛ والعرض إنّما يكون بعد النفخة الثانية، وبين النفختين من الزمان ماشاء الله تعالى، فَلِمَ قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الآية ١٨].

قلنا: وضع اليوم موضع الوقت

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

الواسع الذي يقع فيه النفختان وما بعدهما.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾؟

قلنا: معناه تيقّنت، والظّنّ يطلق بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف أهل النار: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ [الغاشية]، وفي موضع آخر ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان]، وفي موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الواقعة]، وفي موضع آخر: ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة/ ١٧٤]؟

قلنا: معناه إلاّ من غِسْلين وما أشبهه، أو وضع الغسلين موضع كل طعام مؤذٍ كريه. الثاني: أنّ العذاب ألوان والمعذّبون طبقات؛ فمنهم أكلة الزّقّوم، ومنهم أكلة الغِسلين، ومنهم أكلة الضّريع، لكل باب منهم جزء مقسوم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ يعني أن القرآن قول جبريل (ع)، مع أنه قول الله تعالى لا قول جبريل؟

قلنا: معناه عند الأكثرين أن المراد به النبي (ص)، والمعنى أنه يقوله ويتكلم به، على وجه الرسالة من عند الله، لا من تلقاء نفسه، كما تزعمون.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أخبر عن الفرد بالجمع؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في آخر سورة البقرة.

المعاني المجازية في سورة «الحاقّة»(*)

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ استعارة. والمراد بالصَّرصر الباردة. وهو مأخوذ من الصَّرّ. والعاتية: الشديدة الهبوب التي ترد بغير ترتيب، مشبَّهةً بالرجل العاتي، وهو المتمرّد الذي لا يبالي على ما أقدم، ولا في ما ولج ووقع.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ استعارة: المراد بالرّابية هُهنا: العالية القاهرة. مِنْ قولهم: رَبَا الشيء إذا زاد. والرِّبا مأخوذ من هذا. فكأنّ تلك الأخذة كانت قاهرة لهم، وغالبة عليهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ استعارة.

والمراد بها قريب من المراد بالاستعارتين الأوليين، وهو تشبيه للماء في طُمُوّ أمواجه، وارتفاع أثباجه[1] بحال الرجل الطاغي، الذي علا متجبراً وشمخ متكبراً.

وقال بعضهم: معنى طغى الماء أي كثر على خُزّانه، فلم يضبطوا مقدار ماخرج منه كثرة، لأن للماء خَزَنَةً، وللرياح خَزَنَةً من الملائكة عليهم السلام، يخرجون منهما على قدر ما يراه الله سبحانه من مصالح العباد، ومنافع البلاد، على ما وردت به الآثار.

وفي قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، استعارة. وكان الوجه أن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) الأثباج: جمعٌ مفرده ثَبَجٌ، وهو وسط الشيء الرّابي.

يُقال في عيشة مرضيّة. ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم: شعرٌ شاعرٌ، وليلٌ ساهِرٌ. إذا شُعر في ذلك الشعر وسُهر في ذلك الليل، فكأنهما وُصفا بما يكون فيهما، لا بما يكون منهما. فَبَانَ أنَّ تلك العيشة، لما كانت بحيث يرضي الإنسان فيها حَالَهُ جاز أن توصَف هي بالرضا. فيقال راضية. على المعنى الذي أشرنا إليه. وعلى ذلك قول أوس بن حَجَر:(٢)

جُـدلـت عـلـى لـيـلـة سـاهـرة
بـصـحـراء شَـرْجٍ إلـى نـاظـره(٣)

وَصَفَ الليلة بصفة الساهر فيها، وظاهرُ الصفة أنها لها.

وقال بعضهم: إنّما قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ لأنـهـا فـي معنى ذات رضى، كما قيل: لابِنٌ وتامِرٌ. أي ذولَبنٍ وتَمْرٍ.

وكما قالوا لِذِي الدِّرع: دارع، ولِذِي النَّبْل: نابِل، ولصاحب الفَرس: فارسٌ. وإنما جاءوا به على النَّسب، ولم يجيئوا به على الفعل. وعلى ذلك قول النابغة الذبياني(٤):

كِلِيني لـهَمٍ يـا أُمـيـمةُ نـاصِـبِ
ولَيـلٍ أقـاسيـهِ بَـطِـيءِ الـكـواكـبِ

أي: ذي نَصَب. قال فكأن العيشة أُعطِيَتْ من النعيم حتّى رضيت، فحسُن أن يقال: راضية، لأنّها بمنزلة الطالب للرضا، كما أنَّ الشهوة بمنزلة الطالب المشتهَى.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥﴾ استعارة على أحد التأويلات، وهو أن يكون المراد باليمين هُهنا القوّة والقدرة. فيكون المعنى: أنه لو فَعَل ما نكْرهُ فِعْلَه لانتقَمنا منه عن قدرة، وعاقبناه عن قوّة.

وقد يجوز أن تكون اليمين ههنا

---

(٢) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي، كان شاعر تميم في الجاهلية، وعُمِّر طويلاً، ولم يدرك الإسلام؛ وفي شعره رقة وحكمة. وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها:

أيـتـهـا الـنـفـس أجـمـلـي جَـزَعـاً ... إن الـذي تـحـذريـن قـد وقـعـا

(٣) البيت في «الأغاني» جـ ١١ ص ٧٢. وفي مخطوطتنا هذه «حدلت» بالحاء المهملة، وفي أصول «الأغاني» خذلت بالخاء والذال المعجمتين. وجدلت: صرعت. وشرج، وناظرة: اسما مكان بأرض بني أسد.

(٤) هو أشهر من أن نعرّف به هنا، وهو من شعراء الجاهلية المقدّمين، وأخباره مع النعمان بن المنذر واعتذاراته له معروفة متعالمة.

راجعةً على النبي (ص) فيكون المعنى: لو فَعَل ذلك لسلبناه قُدرته، وانتزعنا منه قوَّته. ويكون ذلك كقوله سبحانه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون/ ٢٠] أي تنبت الدُّهن على بعض التأويلات. وكقول الشاعر(٥):

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج

أي نرجو الفَرج.

(٥) هو النابغة الجعدي، كما في «معجم ياقوت» و «تاج العروس» وقد نقل ذلك عنهما محقق «معجم ما استعجم» للبكري ص ١٠٢٩؛ والبيت كاملاً هو:

نحن بنو جعدة أربابُ الفَلَجْ   نضرب بالبيض ونرجو بالفَرَجْ

والفلَج بفتحتين: اسم مكان لبني جعدة، من قيس، ببلاد نجد.

سورة المعَارج

٧٠

أهداف سورة «المعارج»(*)

سورة المعارج سورة مكية، آياتها ٤٤ آية، نزلت بعد سورة الحاقة.

تبدأ السورة بمطلع متميّز، وهو سؤال طرحه أحد الكافرين عن يوم القيامة، سؤال تهكّم او استعجال لهذا اليوم.

وفي الإجابة عن هذا السؤال، وصفت السورة يوم القيامة وألوان الهوان النفسي والحسّي الذي يصيب الكافرين فيه، ثم وصفت هلع الإنسان وجزعه، واستثنت المؤمنين الموصولين بالله تعالى، فهم في يقين ثابت، وأدب كريم.

تنوع أساليب القرآن

سورة المعارج جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة، التي خاضها القرآن في داخل النفس البشرية، وخلال دروبها ومنحنياتها، ورواسبها وركامها، وهي أضخم وأشقّ من المعارك الحربية.

لقد سلك القرآن الكريم كل سبيل، ليصل الى نفوس المشركين ويقنع الجاحدين، ويُثبّت المؤمنين؛ وقد لوّن القرآن في طرق الهداية والدعوة، ومواجهة النفوس الجامحة.

«فتارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر، من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة؛ وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة؛ وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارّة الودود، التي تهفو لها المشاعر وتأنس

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

بها القلوب؛ وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب؛ وتارةً يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة؛ وتارة يواجهها بالأمل والرجاء، الذي يهتف لها ويناجيها؛ وتارة يتخيّل مساربها ودروبها ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء الكاشفة.. ومئات اللمسات والمؤثرات، يطلع عليها قارئ القرآن الكريم»[1]، وهو يتابع تلك المعركة الطويلة، التي قادها القرآن على عادات الجاهلية وركامها حتى انتصر عليها.

وسورة المعارج لون من ألوان البيان القرآني، في تقرير حقيقة الآخرة، وما فيها من جزاء، وموازين هذا الجزاء، وإقرار هذه الحقيقة في النفوس. وتكاد تكون لوناً من ألوان السياط اللاذعة، والأضواء الكاشفة، التي ساقها القرآن الكريم لتفتح عيون المشركين على ما هم فيه من ضلال، وما ينتظرهم من حساب وعقاب.

مع آيات السورة

[الآيات ١ ـ ٥]: يسأل المشركون[2] رسول الله (ص) سؤال استهزاء عن العذاب الذي يخوّفهم به؛ ويجيب الله سبحانه، بأنه واقع لا شك في وقوعه، ولا يستطيع أحد دفعه؛ وهذا العذاب من الله ذي الدرجات العُلى. ويأمر الله تعالى نبيه(ص) بالصبر الجميل الهادئ.

[الآيات ٦ ـ ١٤]: كان الكفّار ينكرون حقيقة الآخرة، ويرونها بعيدة الوقوع، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، وكانوا يتلقّونها ببالغ العجب والدهشة والاستغراب.

وقد بيّنت الآيات أن ذلك اليوم قريب الوقوع، وكل آت قريب، ثم رسمت مشاهد هذا اليوم، في مجال الكون وأغوار النفس، وهي مشاهد توحي بالهول الشديد، في الكون وفي النفس. وفي يوم القيامة تكون السماء (كالمُهْلِ) والمُهْل: ذوب المعادن الكدر، أي كدُرْدِيّ[3] الزيت. وتكون

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩/٩٦ بتصرف.

(٢) رواية عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن الذي سأل هو النضر بن الحارث، وفي رواية أخرى عنه قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم.

(٣) دُرْدِيّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله.

الجبال (كالعِهْنِ): أي كالصوف الواهن المنتفش. ويتمنّى الكافر في ذلك اليوم لو يفتدّى من العذاب ببنيه، وزوجته وأخيه، وقبيلته وجميع من في الأرض. وهي صورة للهول الشديد الذي يصيب الكافر فيتمنّى النجاة ولو قَدَّم أعز الناس إليه. ومن كان يفتديهم بنفسه في الحياة.

[الآيات ١٥ ـ ١٨]: تردع هذه الآيات هذا الكافر، عن تلك الأماني المستحيلة، في الافتداء بالبنين والعشيرة. وتُبيّن للكافر أنّ ما أمامه هو النار، تتلظّى وتتحرّق، وتنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً؛ وهي غول مفزعة تنادي مَنْ أعْرَض عن الحق، وحرِصَ على المال، وبَخِل به ليدخل فيها.

[الآيات ١٩ ـ ٢١]: جُبِلَ الانسان على الهلع فهو قليل الصبر، شديد الحرص، يجزع إذا نزل به الضرّ والألم، فلا يتصوّر أن هناك فَرَجاً؛ ومن ثم يأكله الجزع، ويمّزقه الهلع، كما يغلبه الحرص والبخل عند وجود المال والعافية.

[الآيات ٢٢ ـ ٣٥]: تستثني هذه الآيات المصلّين، فإنّهم يحافظون على صلاتهم، فتمنحهم الصلاة الثبات والاستقرار، وتراهم صابرين في البأساء، شاكرين في النعماء، يخرجون زكاة أموالهم، ويتصدّقون على الفقراء، ويصدّقون بيوم الجزاء، ويخافون غضب الله وعقابه، ويتّسمون بالاستقامة والعفة، وحفظ الفروج عن الحرام، والتمتّع بالحلال من الزوجة وملك اليمين، وأداء الشهادة بالحق والعدل، والمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وأداء سننها وآدابها وخشوعها؛ تلك الصفات هي صفات هذا الفريق المؤمن، الذي يستحق الجنّة والتكريم، ويتمتّع بالنعيم الحسّي، والنعيم الروحي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾.

[الآيتان ٣٦ ـ ٣٧]: تعرض هاتان الآيتان مشهداً من مشاهد الدعوة في مكة، والمشركون يسرعون الخطى، الى المكان الذي يكون فيه الرسول (ص) يتلو القرآن الكريم؛ ثم يتفرّقون حواليه جماعات وفئات، لا ليسمعوا ويهتدوا، ولكن ليستطلعوا ثم يتفرقوا، يدبرون الكيد والردّ على ما سمعوا.

[الآية ٣٨]: أيطمعون في دخول

الجنة، وهم على هذه الحال من الإعراض والتكذيب؟.

[الآيات ٣٩ ـ ٤١]: لقد خُلِقُوا من ماءٍ مَهِينٍ، وهم يعلمون أصل خلقتهم؛ والله سبحانه قادر على أن يخلق خيراً منهم، وهم لا يسبقونه ولا يفوتونه، ولا يهربون من مصيرهم المحتوم.

ثم تتجه الآيتان ٤٢ و٤٣ في الختام، الى وعيدهم وتهديدهم بيوم الجزاء، يوم يخرجون من القبور مسرعين، كأنما هم ذاهبون الى نُصُبٍ يعبدونه، وهم ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يسرعون.

وترسم الآية الأخيرة [الآية ٤٤] سماتهم، وتلمح صورة ذليلة عانية، في ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون به، فيستريبون فيه ويشكّون.

مجمل ما تضمنته السورة

«بيان جزاء الكافر في استعجال العذاب، وطول القيامة وهولها، وشغل الخلائق في ذلك اليوم المهيب، وتصوير النفس البشرية في السرّاء والضرّاء، وبيان محافظة المؤمنين على خصال الخير، وطمع الكفار في غير مطمع، وذلّ الكافرين يوم القيامة»[٤] في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(٤) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ١/ ٤٨٠، بتصرف.

ترابط الآيات في سورة «المعارج»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة المَعَارج بعد سورة الحاقّة، ونزلت سورة الحاقّة بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة، فيكون نزول سورة المعارج في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ وتبلغ آياتها أربعاً وأربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، بيان قرب العذاب الذي أنذر به الكافرون، وبهذا يكون سياقها في سياق الإنذار المذكور في السُّور السابقة؛ وهذا هو وجه ذكر هذه السورة بعدها.

بيان قرب العذاب
الآيات [١ ـ ٤٤]

قال الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾، فذكر سبحانه، أنهم يسألون تعجيل عذاب واقع بهم، توبيخاً على سؤالهم؛ ثم أمر النبي (ص) أن يصبر على استهزائهم بذلك السؤال، وذكر سبحانه أنهم يرون هذا العذاب بعيداً وأنه يراه قريباً، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾، إلى غير هذا مما ذكره من أحواله؛ ثم ذكر أن الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً، فلا يقوى على ما أمره به من الصبر إلا قليل منهم، وهم

(*) انتفي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

المصلُّون الذين هم على صلاتهم دائمون، إلى غير هذا مّما ذكره من صفاتهم، وقد ختمها تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥﴾. ثم وبّخ الكافرين على إقبالهم مسرعين نحو النبيّ (ص) يسألونه ذلك السؤال على سبيل الاستهزاء؛ كأنّ كلّ واحد منهم، يطمع أن يدخل جنة نعيم، ولا يكون جزاؤه ذلك العذاب؛ ثم ردعهم عن ذلك الطمع الكاذب، وذكر سبحانه أنه خلقهم من نطفة لا حياة فيها، فهو قادر على بعثهم وعذابهم، وعلى أن يبدّل خيراً منهم؛ ثم أمر النبي (ص) أن يتركهم في لهوهم حتى يأتي ما يوعدون به، فيخرجوا من أجداثهم ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾.

أسرار ترتيب سورة «المعارج»(*)

أقول: هذه السورة كالتتمة لسورة الحاقة، في بقية وصف يوم القيامة والنار[1].

وقال ابن عباس: إنها نَزَلَتْ عَقِبَ سورة الحاقة[2] وذلك أيضاً من وجوه المناسبة في الوضع.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك من أول السورة الى قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

(٢) الإتقان: ١/ ٩٧.

مكنونات سورة «المعارج»(*)

١ ـ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ [الآية ١].   ؛   وقيل: هو محمد (ص).

قال ابنُ عباس: هو النَّضْر بن الحارث. أخرجه ابنُ أبي حاتم   وقيل: نوح (ع). حكاهما الكَرماني.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفحمات الأقران في مُبهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «المعارج»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾، أي: مُسرعين نحوك، مادّي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿عِزِينَ ۝٣٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾، أي فِرَقاً شتّى جمع عِزَة، وأصلها عِزْوة؛ كأنّ كلّ فرقة، تَعْتَزِي إلى غير من تَعتَزِي إليه الأخرى.

أقول: وهذا الجمع ممّا ألحق بجمع المذكر السالم، ولهذه الألفاظ الملحقة بهذا الجمع كالسنين والثبين والمئين وغيرها دلالة تاريخية، وهي أنّ هذا الجمع كان عاماً لا يتصل بالعلم المذكر العاقل ولا صفته.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾ أي: يُسرعون إلى الداعي، مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم.

أقول: والفعل «أوفض» من الأفعال التي نجهلها في العربية المعاصرة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «المعارج»(*)

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾ بالنصب على البدل من الهاء[1]؛ وخبر ﴿إن﴾ (نزّاعةٌ)[2] وان شئت جعلت (لَظَى) رفعاً على خبر (إنّ) ورفعت (نزّاعةٌ) على الابتداء.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝﴾. ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝﴾ فجعلَ (الإنسان) جميعاً، ويدلّك على ذلك أنّ السّياق قد استثنى منه جميعاً.

وقال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝﴾ كما تقول «ما لَكَ قائماً» وواحدة «العزين» العِزَةُ. مثل «ثُبة» و«ثُبين».

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في السبعة ٦٥٠ نسبت الى عاصم؛ وزاد في الجامع ١٨/ ٣٣٤ إلى ابن أبي عبلة وأبي حيوة والزعفراني وابن مقسم واليزيدي في اختياره.

(٢) في الطبري ٢٩/ ٧٥ أنها إجماع قراء الأمصار؛ وفي السبعة ٦٥١ إلى غير عاصم وإلى أبي بكر عن عاصم في رواية؛ وفي الكشف ٢/ ٣٣٥، والتيسير ٢١٤ إلى غير حفص؛ وفي الجامع ١٨/ ٢٨٧ إلى أبي جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر والأعمش وأبي عمرو وحمزة والكسائي؛ وفي البحر الى ٨/ ٣٣٤ الجمهور.

لكل سؤال جواب في سورة «المعارج»(*)

لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ ويفسّره ما بعده، والإنسان في حال خلقه ما كان موصوفاً بهذه الصفات؟

قلنا: «هلوعاً» حالٌ مقدَّرة. فالمعنى مقدراً فيه الهلع كما في قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح/٢٧] وهم ليسوا محلّقين حال الدخول.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾، ثم قال تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون] فهل بينهما فرق؟

قلنا: المراد بالدوام المواظبة والملازمة أبداً. وقيل: المراد به سكونهم فيها بحيث لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً؛ واختاره الزجّاج وقال: اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن، كما جاء في الحديث «أنه (ص) نهى عن البول في الماء الدائم» قلت: وقوله تعالى ﴿عَلَىٰ﴾ ينفي هذا المعنى فإنه لا يقال: هو على صلاته ساكن، بل يقال: هو في صلاته ساكن. والمراد بالمحافظة عليها أداؤها على أكمل وجوهها، جامعة لجملة سننها وآدابها، فالدوام يرجع إلى الصلاة نفسها والمحافظة على أحوالها.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

المعاني المجازية في سورة «المعارج»(*)

في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ استعارة. والمراد بدعائها مَنْ أدبر وتولّى، والله أعلم، أنه لما استحقها بإدباره عن الحق، صارت كأنها تدعوه إليها، وتَسُوقُه نحوها. وعلى ذلك قول ذي الرمّة(*) في صفة الثور:

غدا بِوَهْبِين مجتازاً لِمَرْتَعِهِ

بذي الفوارس تدعو أنفَهُ الرِّبَبُ

والرِّبَبُ جمع رِبَّة، وهي نبت من نبات الصيف.

يقولُ لما وجد رائحة الرِّببِ، مضى نحوها، فكأنها دعته إلى أكْلها. وقد يجوز أيضاً، أن يكون المراد بذلك أنّها لا يفوتها ذاهب، ولا يعجزها هارب. فكأنها تدعو الهارب منها فيجيبها مدّاً له بأسبابها، وردّاً له إلى عذابها.

وقال بعض المفسّرين: إنّه تخرج عنُقٌ من النار فتتناول الكافر حتّى تقحِمَه فيها، فكأنها بذلك الفعل داعية إلى دخولها.

وقد يجوز أن يكون المرادُ أنها تدعو مَنْ أدبر عن الحق. بمعنى أنّها تخوّفه، بفظاعةِ الخبَرِ عنها، وتغليظ الوعيد بها، فكأنها تستعطفه الى الرشد، وتستصرفه عن الغَيِّ. وحُكِي عَن المبرّدِ أنه قال: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

(*) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة. شاعر فحل اشتهر بالتشبيب وبكاء الأطلال، ذاهباً مذهب الجاهليين. توفي بأصبهان سنة ١١٧هـ.

﴿وَتَوَلَّىٰ (١٧)﴾. أي تُعذّبه. وحُكي عن الخليل: أنّ أعرابياً قال لآخر: دعَاك الله. أي عذّبك الله. وقال ثعلب: معنى دَعَاك الله. أي أماتَكَ الله. فَعَلى هذا القول دخل الكلام في باب الحقيقة، ويخرج عن حيز الاستعارة.

سورة نُوح

٧١

أهداف سورة «نوح»(*)

سورة نوح سورة مكية، آياتها ٢٨، نزلت بعد سورة النحل.

فكرة السورة

السورة قصة نبيّ من أولي العزم من الرسل، أرسله الله تعالى إلى قومه ليدعوهم إلى الإيمان، فقاوموا دعوته، وأنكروا رسالته، فلفت نوح (ع) نظرهم إلى التأمل في خلق السماء والشمس والقمر، والأرض والنبات وسائر المخلوقات، ولكنهم صمّوا آذانهم عن سماع الحق، وحَجَبوا عيونهم عن النظر في الأدلّة الواضحة والحجّة الدامغة، فاستحقّوا عقاب الله وأُغرقوا بالطوفان في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد.

أهداف الرسالات

السورة نموذج حيّ لمعاناة الرسل مع قومهم، وجهادهم في سبيل الدعوة، لقد مكث نوح (ع) مع قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وما آمن معه إلاّ قليل؛ ولقد كان عناد قومه سبباً في هلاكهم. وكأن الله سبحانه أراد أن يحذّر أهل مكة من العناد، وأن يذكّرهم بمن أهلك من الكافرين؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الاسراء].

يعني لقد أهلك الله قوم نوح، وأهلك من بعده عدداً كبيراً كعاد وثمود وفرعون؛ وكان هلاكهم جزاءً عادلاً، وعقاباً مناسباً، لقوم يعلم الله إصرارهم

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

على الكفر، وبعدهم عن قبول الحق.

لقد صبر الرسل، وصابروا، من أجل إبلاغ الدعوة إلى قومهم، وحملوا كلمة الله ناصعة نقية واضحة سليمة، وعرضوها أمام العيون والقلوب لتبصر وترى آثار قدرة الله وعظيم خلقه، وليكون إيمانها عن بيّنة ويقين، ولئلا يحتجّ إنسان يوم القيامة بأن الرسالة لم تبلغه؛ قال تعالى:

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء/ ١٦٥].

ومن هؤلاء الرسل، خمسة كانوا أكثر معاناة مع قومهم، وهم سيدنا نوح، وسيدنا ابراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام.

وقد كان جهادهم مع قومهم، آيةً في تحمّل البلاء والصبر على الإيذاء والعناد، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الاحقاف/ ٣٥].

لقد صبر نوح (ع) دهراً طويلاً على قومه، وأُلقي ابراهيم (ع) في النار، وأوذي موسى (ع) أبلغ الأذى فصبر، وحاول اليهود الإيقاع بالمسيح (ع) والإغراء بقتله فرفعه الله تعالى اليه، وكان خاتم الرسل محمد (ص) يتحمّل صنوف الأذى وألوان الاضطهاد في مكّة، ويتحمل نفاق المنافقين وكيد اليهود في المدينة. ولكنّ العاقبة كانت للمتقين. لقد أدّى الرسل واجبهم، وبلّغوا رسالتهم، ونجّاهم الله مع المؤمنين، ثم عاقب الجاحدين.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

مع آيات السورة

[الآيات ١ ـ ٤]: أرسل الله نوحاً (ع)، ليدعو قومه إلى عبادة الله سبحانه وطاعته، وقد بلّغ نوح دعوة ربه إلى قومه، ولخّص دعوته في ثلاث كلمات: اعبدوا الله وحده؛ واتقوه وآمِنوا به عن يقين؛ وأطيعوا رسولكم فيما يأمركم به، وينهاكم عنه.

وبهذا الإيمان تستحقّون مغفرة الله لكم، والبركة في أعماركم، ولا شكّ أنّ للطاعات مدخلاً في راحة البال واستقرار العيش، وهدوء النفس، وهذا بلا ريب، يطيل هناءة العمر، ويجعله مباركاً حافلاً بالأعمال النافعة.

[الآيات ٥ ـ ٩]: تعبّر الآيات عن جهود نبيّ كريم، في دعوة قومه إلى الإيمان، فهو يؤدّي رسالته، وينهض بدعوة قومه ويناجي ربّه قائلاً ما معناه:

لقد دعوت قومي إلى عبادتك والإيمان بك في الليل والنهار، وانتهزت كلّ فرصة مناسبة، لدعوتهم وإرشادهم؛ ولكنّهم لم يستجيبوا لدعوة الله، وقابلوها بالجحود والعناد، وأغلقوا في وجه الدعوة قلوبهم، وسدُّوا منافذ العلم إلى نفوسهم، فجعلوا أصابعهم في آذانهم، ليمنعوها من السمع، وغطُّوا عيونهم بثيابهم ليمنعوها من الإبصار؛ واستمروا في عنادهم وكفرهم.

وقد لوّن نوح (ع) في أساليب الدعوة، فدعاهم علناً في أماكن التجمّع فلم يستجيبوا، فدعا كل فردٍ على حدة، وحاول استمالة الأشخاص واقناعهم، فلم يلق قبولاً.

[الآيات ١٠ ـ ١٢]: وقد دعاهم إلى التوبة والإنابة، وطلب المغفرة من الله فإذا صدقوا في توبتهم غمرهم الله بالنعم، وأنزل عليهم المطر، ورزقهم الأموال والذرّيّة، والبساتين النضرة والمياه الجارية.

[الآيات ١٣ ـ ٢٠]: لِمَ لا تعظّمون الله وهو خالق الأوّلين والآخِرين في أطوار وجودهم، وجميع ما في الكون يدلّ على الله؟ فالسموات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض، والشمس والقمر، وخلق الانسان ونموّه كما ينمو النبات، ثم عودته إلى الأرض بعد الموت، والأرض المُمَهَّدَة، المهيّأة للانتفاع بما في باطنها من كنوز ومعادن، وما في ظاهرها من زراعة وصناعة وتجارة، هذه المخلوقات كلّها تدلّ على الإله الخالق.

[الآيات ٢١ ـ ٢٥]: في هذا المقطع نسمع آلام نبيّ كريم، قدم لقومه مختلف الحجج والبراهين، ولكنّ قومه قابلوا دعوته بالتكذيب والعصيان، واتّبعوا الخاسرين الهالكين، والزعماء المضللين، وبيّتوا أمرهم بالكيد لنوح ودعوته، وتواصَوْا بالبقاء على كفرهم ومألوفهم وعبادة أصنامهم، وخصُّوا بالذكر الأصنام الخمس الكبار وهي: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويَغُوثُ، ويَعُوقُ، ونَسْرٌ، وهي أصنام كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب. وهنا ضاق نوح بقومه، وضلالهم الكثير، فدعا الله أن يزيدهم ضلالاً جزاء

عنادهم: لقد ارتكبوا كثيراً من الأخطاء، ولذلك أغرقهم الله بالطوفان، ثم أُدخلوا في عذاب القبر، وعذاب النار، ولم يجدوا أحداً ينصرهم وينقذهم من عذاب الله. وهكذا يكون جزاء كلّ كافر معاند، أن يحلّ به بطش الله القويّ الغالب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر].

[الآيتان ٢٦ ـ ٢٧]: وفي آخر السورة زفرات نبي مكلوم؛ مكث ألف سنة، ثم قوبل بالجحود، فسأل ربّه أن يُهلك جميع الكافرين، وألاّ يترك منهم أحداً، وليس ذلك حبّاً في الانتقام، ولكن رغبة في نظافة الأرض منهم، لأنّ بقاءهم كفّاراً، يُخشى منه أن يفتنوا المؤمنين، ويُضلّوهم بالرغبة أو الرهبة؛ ولا يخرج من أصلاب هؤلاء الكافرين إلاّ فاجرٌ كافرٌ، فالإناء ينضح بما فيه.

[الآية ٢٨]: وفي آخر آية تَبتُّل نبي كريم بدعاءٍ نَدِيّ رَضِيّ، يطلب فيه مغفرة الله له ولوالديه، ولمن دخل في دعوته وآمن به، ولسائر المؤمنين والمؤمنات؛ أمّا الظالمون فلا يستحقّون الهداية، التي أعرضوا عنها، بل يستحقون أن يزيدهم الله ضلالاً إلى ضلالهم؛ فمن أعرض عن الله سبحانه، سلب عنه تعالى الهدى والتوفيق، وتركه يتخبط في دياجير الظلام: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة/ ٦٧].

المعنى الإجمالي للسورة

الهدف الرئيس للسورة، بيان دعوة نوح(ع) وحرصه على إيمان قومه، وقد حوت هذه الدعوة ما يأتي:

(أ) طلب تركهم للذنوب، وأنهم إذا فعلوا ذلك، أكثر الله لهم المال والبنين.

(ب) النظر في خلق السماوات والأرض، والأنهار والبحار.

(ج) النظر في خلق الإنسان، وأنه سبحانه يخلق في الأرض كما يخلق النبات، وأنّ الأرض مسخّرة له، يتصرّف فيها، جلت قدرته، كما يشاء.

وبيّنت السورة، كفر قوم نوح وعنادهم، وعقابهم في الدنيا والآخرة.

ترابط الآيات في سورة «نوح»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة نوح بعد سورة النحل، ونزلت سورة النحل بعد الإسراء وقُبَيل الهجرة؛ فيكون نزول سورة نوح، في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ وتبلغ آياتها ثماني وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: إنذار المشركين بما حصل لقوم نوح (ع) حينما عَصَوْه. وبهذا تكون موافقة للسُّوَر المذكورة قبلها في سياق الإنذار، وهذا هو وجه المناسبة في ذكرها بعدها.

قصة نوح
الآيات [١ ـ ٢٨]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾، فذكر تعالى أنه أرسل نوحاً(ع) إلى قومه، لينذرهم قبل أن يعذِّبهم على كفرهم؛ وأن نوحاً (ع) دعاهم إلى عبادة الله جل جلاله، ليغفر لهم ذنوبهم؛ وكان كُلّما دعاهم أصرُّوا واستكبروا؛ وأنه كان يكرر الدعوة، ويقيم لهم الأدلة على ألوهيّة الله

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

سبحانه، إلى أن يئس نوح (ع) منهم ودعا ربه أن يهلكهم؛ لأنه إن تركهم، يضلّوا عباده، ولا يلدوا إلا فاجراً كافراً. ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «نوح»(*)

أقول: أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها، بعد طول الفكر، أنه سبحانه لمّا قال في (سأل): ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [المعارج]. عقّبه بقصة قوم نوح (ع) المشتملة على إبادتهم عن آخرهم، بحيث لم يبق منهم ديّار، وبدّل خيراً منهم، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك.

هذا مع تآخي مطلع السورتين في ذكر العذاب التي يُوعِد به الكافرين[1].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) العذاب في مطلع سأل من أول السورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج] وفي سورة نوح: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾.

مكنونات سورة «نوح»(*)

١ ـ ﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [الآية ٢٨].

قال سعيد بنُ جُبير: يعني والدَهُ وجَدَّهُ. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

واسم أبيه: لَمْك؛ بوزن ضَرْب.

وَجدّه مَتُوْشَلَخ، بفتح الميم وتشديد المثناة الفوقية المضمومة، بعدها واو ساكنة، وفتح الشين المعجمة واللام، بعدها خاء معجمة.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «نوح»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾.

وقرئ بالتخفيف أيضاً، والكُبار أكبر من الكبير، والكُبَّار أكبر من الكُبار.

كقولهم طُوال وطُوَّال.

أقول: ولا نعرف هذه الأبنية في العربية بالتخفيف والتثقيل.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «نوح»[*]

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾، أيْ: لا تَخافُونَ للهِ عظمة. و «الرجاء» هٰهنا خوف، و«الوَقار» عَظَمَة. وقال الشاعر[1] [من الطويل وهو الشاهد الثاني والسبعون بعد المئتين]:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ[2] لَمْ يَرْجُ لَسْعَها
وخالَفَها في بيتِ نُوبٍ عَواسِلِ[3]

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾، طوراً عَلَقَةً وطوراً مُضْغَةً.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [الآية ١٦] وإنّما هو، والله أعلم، على كلام العرب، وإنما القمر في السماء الدنيا، فيما ذُكِرَ؛ كما تقول «أتَيْتُ بني تَمِيم» وإنما أتيت بعضهم[4].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾. بجعل «النَّبات» المصدر، والمصدر «الإنبات» لأن هذا يدل على المعنى.

وقال تعالى: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾. واحدها «الفَجُّ» وهو الطريق.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية ٢٤]، لأن هذا حكاية من قول نوح(ع) دعاء عليهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) هو أبو ذؤيب الهذلي. ديوان الهذليين ١/ ١٤٣ والصحاح واللسان ومختار الصحاح «رجا».

(2) في الديوان: الدبر بدل النحل.

(3) البيت في معاني القرآن ١/ ٢٨٦ و ٢/ ٢٦٥. والنُّوبُ: النَّحْلُ.

(4) نقله في زاد المسير ٨/ ٣٧١، والجامع ١٨/ ٣٠٤.

لكل سؤال جواب في سورة «نوح»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [الآية ٤] فإن كان المراد به تأخيرهم عن الأجل المقدّر لهم في الأزل، فهو محال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون/١١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ﴾ [الآية ٤]. وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجيء الأجل المقدّر لهم في الأزل، فما فائدة تخصيصهم بهذا، وهم وغيرهم في ذلك سواء، على تقدير وجود الإيمان منهم، وعدم وجوده؟

قلنا: معناه ويؤخّركم عن العذاب، إلى منتهى آجالكم، على تقدير الإيمان، فلا يعذّبكم في الدنيا، كما عذّب غيركم من الأمم الكافرة فيها. الثاني: أنّه، سبحانه، قضى أنهم إن آمنوا عَمّرهم ألف سنة، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى هذا الأجل.

فإن قيل: لِمَ أمرهم بالاستغفار، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر؟

قلنا: معناه: استغفروا ربّكم من الشرك، بالتوحيد.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾. والحيوان ضد النبات، فكيف ينطلق على الحيوان أنه نبات؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا. هو استعارة، للإنشاء والإخراج من الأرض، بواسطة آدم (ع).

فإن قيل: لِمَ دعا نوح (ع) على قومه بقوله، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم؟

قلنا: إنما دعا عليهم بذلك، بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

فإن قيل: لم قال نوح، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴿٢٧﴾﴾ وصفهم بالفجور والكفر في حال ولادتهم وهم أطفال؛ وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً؟

قلنا: إنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ، وإنما علم ذلك بإعلام الله تعالى؛ أو وصفهم بما يؤولون إليه من الفجور والكفر، وعلم ذلك بإعلام الله إياه.

المعاني المجازية في سورة «نوح»(*)

في قوله سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ استعارة، لأنّ الوقار، هٰهنا، وَضع الحلم مجازاً؛ يقال: رجل وقور، بمعنى حليم.

فأما حقيقة الوقار الذي هو الرزانة والثِّقَل، فلا يجوز أن يوصف بها القديم سبحانه، لأنها من صفات الأجسام، وإنما يجوز وصفه تعالى بالوقار، على معنى الحِلْم كما ذكرنا. والمعنى أنه يؤخِّر عقاب المذنبين مع الاستحقاق، إمهالاً للتوبة، وإنظاراً للفيئة والرجعة. لأنّ الحليم في الشاهد، اسم لمن يترك الانتقام عن قدرة، ولا يسمى غير القادر إذا ترك الانتقام حليماً، للعلّة التي ذكرناها. وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ هٰهنا أي لا تخافون. فكأنه سبحانه قال: مالكم لا تخافون الله حِلْماً؟ وإنما أخّر عقوبتكم، إمهالاً لكم، وإيجاباً للحجة عليكم. وإلاّ فعقابه من ورائكم، وانتقامه قريب منكم.

وقد جاء في شعر العرب لفظ الرجاء، والمراد به الخوف. ولا يردُ ذلك إلا وفي الكلام حرف نفي. لا يقال: فلان يرجو فلاناً بمعنى يخافه، بل يقال: فلان لا يرجو فلاناً. أي لا يخافه. وقال الهذلي أبو ذؤيب[1]:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) أبو ذؤيب الهذلي: تقدمت الإشارة إليه والترجمة له في الحديث عن مجازات سورة الزمر.

إذا لسعته الدَّبْر[٢] لم يَرْجُ لَسْعَها
وحالفها في بيت نُوبٍ عواسِلِ[٣]

أراد لم يَخَف لسعها.

وقال الآخر[٤]:

لا ترتجي حين تلاقي الذائدا
أخمسةً لاقت معاً أو واحدا

أي لا تخاف. وقال بعض العلماء: إنما كَنَوْا عن الخوف بالرجاء في هذه المواضع، لأن الراجي لا يستيقن، فمعه طرف من المخافة. وقال بعضهم: الوقار هٰهنا بمعنى العظمة، وسعة المقدرة. وأصل الوقار: ثبوت مابه يكون الشيء عظيماً، من الحلم والعلم، اللذين يُؤْمَنُ معهما الخرق والجهل.

ومن ذلك قول القائل: وقد وَقَر قولُ فلان في قلبي. أي ثَبَت واستقر، أو خدش وأثر.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ استعارة، لأن حقيقة الإنبات إنما تَجْري على ما تُطلعُهُ من نباتها، وتخرجه عند ازدراعها. ولمّا كان سبحانه، يُخْرج البريَّة من مضايق الأحشاء، إلى مَفَاسح الهواء، ويُدرجهم من الصِّغَر إلى الكِبَر، وينقلهم من الهيئات والصور؛ كل ذلك على وجه الأرض، فقد قال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾.

وقال بعضهم، قد يجوز أن يكون المراد بذلك، خَلْق آدم عليه السلام من الطين، وهو أصل الخليقة. فإذا خلقه سبحانه من طين الأرض، كان نسله مخلوقين منها، لرجوعهم إلى الأصل المخلوق من طينها. فحسُن أن يقول سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ أي استخرجكم من طين الأرض. و«نباتاً» هٰهنا، مصدرٌ وَقَع مخالفاً لما يُوجبه بناء فِعْلِه؛ وكان الوجه أن يكون: إنباتاً. لأنّه في الظاهر مصدر أنبتكم. وقد قيل إنّ هناك فعلاً محذوفاً جَرى المصدر عليه، فكأنه

---

(٢) الدبر: جماعة النحل والواحدة دبرة.

(٣) نقل ديوان الهذليين ١/ ١٤٣١؛ معاني القرآن ١/ ٢٨٦ و ٢/ ٢٦٥.

(٤) لم ينسب في «أساس البلاغة» لقائله. ورُوِي في الأساس هكذا:

لا ترتجي حين تلاقي الذائدا ... أسبْعَةً لاقت معاً أم واحداً.

تعالى قال: والله أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً. لأن أنبت يدل على نَبَتَ، من جهة أنه مضمّن به.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ استعارة. والمراد بالبساط هُهنا: المكان الواسع المستوي. مشبّه بالبساط، وهو النمط الذي يُمدّ على الاستواء، فيُجلَسُ عليه.

وقال الأصمعي[5]: وبنو تميم خاصة يقولون بَسَاط، بفتح الباء. وقال الشاعر[6]:

وَدُونَ يَدِ الحَجَّاجِ مِنْ أنْ يَنَالَني
بساط لأيدي الناعجات[7] عريض

وتَصْيِير الأرض بساطاً، كتصييرها فِراشاً ومهاداً.

وهذه الألفاظ الثلاثة ترجع إلى معنى واحد.

---

(٥) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب، الراوية المشهور، وأحد علماء اللغة الأثبات. ونسب إلى جده «أصمع»؛ وكان يتلقى الأخبار مشافهة من البوادي، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بأجزل الهبات. قال فيه الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقد انفرد برواية قصائد جمعها المستشرق الألماني وليم أهلورت، وتوفي بالبصرة سنة ٢١٦.

(٦) هو العديل بن الفرج، ولقبه العباب: والعباب اسم كلب له، فلقّب باسم كلبه. وكان هجا الحجاج بن يوسف، فطلبه، فهرب منه إلى قيصر ملك الروم، فقال أبياتاً منها هذا البيت وأخباره في «الشعر والشعراء» ص ٣٧٥، و«الأغاني» جـ ٢٠، و«الخزانة» جـ ٢.

(٧) في «الشعر والشعراء» «اليعملات» والناعجات هي النياق البيض. واليعملات: جمع يعملة، وهي الناقة المطبوعة على العمل.

سورة الجنّ

٧٢

أهداف سورة «الجن»(*)

سورة الجن سورة مكية، آياتها ٢٨ آية، نزلت بعد سورة الأعراف.

وهي سورة تصحح كثيراً من المعلومات الخاطئة لأهل الجاهلية عن الجن، فقد كانوا يزعمون أن محمّداً (ص)، يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها، فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها، وبتكذيب دعواهم في استمداد محمّد (ص) من الجن شيئاً.

والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلاّ حينما سمعوه من محمّد (ص)، فهالهم وراعهم ومسّهم منه ما يدهش ويذهل، فانطلقوا يحدّثون عن هذا الحدث العظيم، الذي شغل السماء والأرض، والإنس والجن والملائكة والكواكب، وترك آثاره ونتائجه في الكون كلّه، وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرّية حتماً.

أوهام عن الجن

كان العرب يبالغون في أهمّية الجن، ويعتقدون أنّ لهم سلطاناً في الأرض، فكان الواحد منهم، إذا أمسى بوادٍ أو قفرٍ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض، فقال أعوذ بسيّد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم بات آمناً.

كذلك كانوا يعتقدون أنّ الجنّ تعلم الغيب، وتخبر به الكهّان، فينبئون بما يتنبأون؛ وفيهم مَن عَبَدَ الجنّ، وجعل بينهم وبين الله نسباً؛ وزعم أن له

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

سبحانه وتعالى زوجة منهم، تلد له الملائكة. وهكذا نجد كثيراً من الأوهام والأساطير، تغمر قلوب الناس ومشاعرهم، وتصوّراتهم عن الجن في القديم، ولا تزال هذه الأوهام، تسود بعض البيئات إلى يومنا هذا.

ونجد في الصف الآخر، منكرين لوجود الجنّ أصْلاً، يصفون أيّ حديث عن هذا الخلق المغيّب، بأنه حديث خرافة...

وبين الإغراق في الوهم، والإغراق في الإنكار، يقرّر الإسلام حقيقة الجن، ويصحّح التصوّرات العامة عنهم، ويحرّر القلوب من خوفها، وخضوعها لسلطانهم الموهوم.

الجن في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن الجن في عدد من السور، وعالج الأخطاء الشائعة عن الجن، وأثبت الحقيقة المتعلقة بالجن، وقدّم للإنسان صورة واضحة دقيقة متحرّرة من الوهم والخرافة، ومن التعسّف في الإنكار الجامح؛ فالجنّ عالَمٌ نؤمن به، وبخصائصه، كما وردت في القرآن الكريم؛ ولا يَظهرون للعين، ولا يراهم الانسان بحاسّة البصر.

والجنّ منهم الضالّون المضلّون، ومنهم السذّج الأبرياء، الذين ينخدعون، ومنهم المستقيمون على الطريق القويم والمنهج السليم. وليس للجن معرفة بالغيب، وليس لهم قوة ولا حيلة مع قوة الله، وليس بينهم وبين الله صِهْرٌ ولا نسب. وقد كان إبليس من الجن، ثم فسق عن أمر ربه، وتمحّض بالشرّ والفساد والإغراء. وقد خُلق الجن من النار، كما خلق الإنسان من الطين. وقد سُخّرت الجن لسليمان (ع)، فمنهم من كان يبني له المساجد والمنازل والأبنية المختلفة، ومنهم من كان يغوص في البحر يستخرج له اللؤلؤ والياقوت والأحجار الكريمة، وسلّطه الله على المردة والخارجين على القانون، فكان يقيّدهم في السلاسل والأغلال، ويسخّرهم في الأعمال، ويرهقهم بألوان العذاب.

وقد جعل الله سبحانه السيطرة على الجن منحة خاصة لسليمان (ع)، فقد سأل ربه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده،

فأعطاه الله مُلْك الريح والجن والشياطين والمردة:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص].

«إن الكون من حولنا حافل بالأسرار، عامر بالأرواح، حاشد بالقوى، وهذه السورة من القرآن، كغيرها من السُوَر، تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود، تُعين على بناء تصور حقيقي صحيح للوجود، وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعجّ من حولنا، وتتفاعل مع حياتنا. وهذا التصوّر هو الذي يميّز المسلم، ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة، وبين الادّعاء والتطاول، ومصدره هو القرآن والسنة، وإليهما يحاكم المسلم كلّ تصوّر آخر، وكلّ قول، وكلّ تفسير»(*).

استماع الجن للقرآن

في كتب السنّة، ما يفيد أن الجن قد استمعت للقرآن عرضاً دون قصد، فأسلمت وآمنت، وانطلقت تدعو قومها إلى الإسلام.

وفي روايات أخرى، أن النبي (ص) انطلق متعمّداً ليبلّغ دعوته إلى الجن. وقد افتقده أصحابه ذات ليلة، فاشتدّ بهم القَلق، وباتوا بشرّ ليلة بات بها قوم؛ فلمّا أصبحوا جاءهم النبي (ص) من قِبَل حِراء فقال: «أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأتُ عليهم القرآن». والروايتان السابقتان واردتان في الصحيح؛ إحداهما عن ابن عبّاس، يقول: إنّ النبي (ص) لم يعرف بحضور النفر من الجن، والرواية الثانية عن ابن مسعود، تقول إنهم استدعوه (ص)، ويوفّق البيهقي بين الروايتين، بأنهما حادثان لا حادث واحد.

وفي رواية ثالثة لابن اسحاق: أنّ الجن استمعت إلى النبي (ص)، ليلة عودته من الطائف قبل الهجرة.

ولعلّ الجنّ قد استمعت للنبي (ص)

(*) في ظلال القرآن ٢٩/ ١٥١.

غيرَ مرة، وكان في استماع الجن للنبي (ص)، بمكّة قبل الهجرة، تطييباً لخاطره، وتصديقاً لدعوته، وتحقيقاً للحق بشأن الجن، وتصحيحاً لمفاهيم الجاهلية عن الجن، وترشيداً للمسلمين ليكون إيمانهم عن بينة. وقد ساقت سورة الجنّ كثيراً من الحقائق عن الألوهيّة والعقيدة والوحدانية، وإخلاص العبادة لله سبحانه؛ فهي سورة الجنّ، ولكنها توجيه وإرشاد وتعليم للخلق أجمعين.

أسماء السورة

نلاحظ أنّ السورة في القرآن، تسمّى بأغرب شيء فيها، أو أهم شيء فيها، فسورة البقرة اشتملت على قصة قتيل ضُرب بقطعة من البقرة، فَرُدّتْ إليه الحياة. وسورة آل عمران اشتملت على قصة مريم ابنة عمران، وسورة النساء اشتملت على ذكر أحكام النساء. وسورة المائدة اشتملت على قصة المائدة التي نزلت من السماء استجابة لدعاء عيسى (ع).

كما سمى الله سبحانه سور كِتابِه الكريم، بأسماء تبعث على النظر والاعتبار، وتوجب التفكير، فسمى بالأنعام وبالحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت، وبما هو ألطف من ذلك كالنور؛ كما سمى ببعض الأنبياء، كيوسف ويونس وهود عليهم السلام؛ وببعض الأخلاق كالتوبة؛ وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم؛ وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى؛ وببعض المعادن كالحديد وببعض الأماكن كالبلد؛ وببعض النبات كالتين وكل ذلك مما نراه.

وهنا، سمِّي هذه السورة بعالم لا نراه، وهو عالم الجن، وهو عالم لم يُعْرفْ في الإسلام إلاّ من طريق الوحي، وليس للعقل دليل عليه؛ فالمؤمن يؤمن بالغيب، ويؤمن بالملائكة وبالجن، على نحو ما ورد في القرآن.

وسمِّيت السورة سورة الجن، لأنّها تحدّثت عنهم، وبدأت بذكرهم، فقالت: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾.

مع آيات السورة

[الآيتان ١ ـ ٢]: تُطالعنا السورة، بأنّ الجنّ فوجئت باستماع القرآن

الكريم، فقالوا لقومهم إنّا سمعنا كتاباً بديعاً يهدي إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، فصدّقنا به، ولن نعود إلى ماكنّا عليه من الإشراك بالله.

[الآية ٣]: ثم نزّهوا ربّهم عن الزوجة والولد، فقالوا: عَلاَ مُلْك ربنا وسلطانه، أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطرّهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو ملامسة يكون منها الولد؛ وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله، جاءته من صِهْرٍ مع الجن؛ فجاءت الجنُّ، تكذّب هذه الخرافة الأسطورية، في تسبيحٍ لله وتنزيه.

[الآية ٤]: وأنّ الجُهّال من الجن، كانوا يقولون قولاً شططاً بعيداً عن الصواب، بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى.

[الآية ٥]: وأنّهم، كانوا يستعظمون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله؛ فلمّا قال لهم سفهاؤهم: إن لله صاحبة وولداً، صدّقوهم، لأنهم لم يتصوّروا أنهم يكذبون على الله.

[الآية ٦]: وأنّ رجالاً من الإنس، كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن، فزادوا الجنّ بذلك طغياناً وغيّاً؛ وأنّهم لما استعاذوا بالجن خوفاً منهم، ولم يستعيذوا بالله، استذّلوهم واجترأوا عليهم.

[الآية ٧]: ظنّتِ الطائفة الظالمة من الجن، أنّ الله لن يبعث رسولاً إلى خلقه، يدعوهم إلى توحيده، والإيمان برسله، واليوم الآخر.

أو ظنّوا أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، وهذا الظنّ مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله. وهؤلاء النفر من الجنّ المؤمن، يصحّحون لقومهم ظنّهم؛ والقرآن، في حكايته عنهم، يصحّح للمشركين أوهامهم.

[الآيتان ٨ ـ ٩]: كان الجن يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى، واستراق شيء ممّا يدور فيه بين الملائكة، عن شؤون الخلائق في الأرض، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرّافين، الذين يستغلّون الكثير من الحق، فيمزجونه بالكثير من الباطل، ويرّوجونه بين جماهير الناس.

وبعد رسالة النبي محمد (ص)؛

حاول الجن استراق السمع من السماء، فلم يتمكّنوا، لأنّ الحراسة شدّدت على السماء، ومن حاول استراق السمع ومعرفة الغيب، رجم بالشهب فقتلته، أو خَبَلَتْه.

[الآية ١٠]: إن الجن لا تعلم شيئاً عن الغيب المقدّر للبشر، ولا يدرون الحكمة من حراسة السماء بالشهب، ولا ماذا قدّر الله لعباده في الأرض، أَعَذَاباً أراد الله أن ينزله بهم، أم أراد بهم ربهم الهدى، بأن يبعث منهم رسولاً مرشداً، يَهْديهم إلى الحق، والى طريق مستقيم.

[الآية ١١]: من الجن الصالح والطالح، ومنهم المسلم والجائر، فهم مَثَلُهُمْ مَثَلُ الإنسان في طبيعته، لديهم استعداد للخير والشرّ، إلاّ من تمحّض منهم للشر، وهو إبليس وقبيله.

[الآية ١٢]: إن الله قادر علينا حيث كنا، فلا نفوته هرباً؛ فهم يقررون ضعف المخلوق أمام الخالق، ويشعرون بسلطان الله القاهر الغالب.

[الآية ١٣]: لمّا سمعنا القرآن صدّقنا به، وأقررنا بأنه من عند الله. ومن يصدق بالله وبما أنزله على رسله، فلا يخاف نقصاً من حسناته، ولا هواناً ولا جوراً؛ لأنّ المؤمن في حماية الله وعونه ورعايته، وسينال جزاءه وافراً كاملاً.

[الآية ١٤]: من الجن فريق مؤمن، أطاع الله واستقام على الهدى، وفريق قاسط جائر مائل عن الصواب. وقد وصل الفريق المؤمن إلى الصواب، حينما اختار الإسلام، وحرص على الرشد والاهتداء.

[الآية ١٥]: أمّا الجائرون عن سنن الاسلام، فشأنهم أن يكونوا حطباً لجهنم، تتلظّى بهم وتزداد اشتعالاً، كما تتلظّى النار بالحطب.

[الآية ١٦]: يلتفت القرآن في الخطاب، وينتقل من الحديث على لسان الجن، إلى مخاطبة الرسول (ص) والخلق أجمعين فيقول ما معناه: لو استقام الإنس والجن على ملّة الإسلام، لوسّعنا عليهم أرزاقهم، ولبسطنا لهم خيرات الحياة.

[الآية ١٧]: وهذه النعم للاختبار والابتلاء، فمن شكر النعمة وأحسن

التصرّف فيها استحق بقاءها؛ ومن أعرض عن منهج الله، دخل في العذاب الشاقّ الذي يعلوه، ويغلبه ولا يطيق له حملاً.

[الآية ١٨]: إنّ السجود، أو مواضع السجود، وهي المساجد، لا تكون إلا لله؛ فهناك يكون التوحيد الخالص، ويتوارى كلّ ظلٍّ لأيّ كائن، ولكل قيمة، ولكل اعتبار؛ وينفرد الجو للعبودية الخالصة لله.

[الآية ١٩]: لمّا قام محمد (ص) يعبد الله، كاد الجن يكونون جماعات بعضها فوق بعض، تعجّباً مما شاهدوا من عبادته، وسمعوا من قراءته، واقتداء أصحابه، قياماً وركوعاً وسجوداً. وأُخذوا ودهشوا من جلال ما سمعوا، وروعة ما شاهدوا؛ وهو دليل على انشغال السماء والأرض والملائكة والجنّ بهذا الوحي، وعلى الجد الذي يتضمّنه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ [الطارق].

[الآية ٢٠]: قل يا محمّد للناس: إنما أعبد الله وحده، ولا أُشرك بعبادته صنماً، ولا وثناً، ولا مخلوقاً.

[الآية ٢١]: قل إني لا أملك لكم نفعاً ولا ضرّاً؛ فالله وحده هو الذي يملك الضرّ، ويملك الخير.

[الآيتان ٢٢ ـ ٢٣]: إنّي لا أجد ملجأ أو حماية من دون الله، إلاّ أن أبلّغ هذا الأمر، وأؤدّي هذه الأمانة؛ فهذا الأمر ليس أمري، وليس لي فيه إلاّ التبليغ، ولا مفرّ لي من هذا التبليغ؛ والرسالة ليست تطوّعاً، وإنّما هي تكليف صارم جازم، لا مفرّ من أدائه، فالله من ورائه؛ يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة/ ٦٧].

ومن يكذّب برسالات الله، فإن له ناراً يصلاها، خالداً فيها إلى غير نهاية.

[الآية ٢٤]: وإذا كان المشركون، يركنون إلى القوة والعدد، ويقيسون قوّتهم بقوة محمد (ص) والمؤمنين القلائل الذين معه؛ فسيعلمون حينما يرون ما يوعدون: أيُّ الفريقين هو الضعيف المخذول، والقليل المهزول.

[الآية ٢٥]: ويتجرّد الرسول (ص) وينفض يده من أمر الغيب، فالعذاب

الذي يتوعّد به الكافرين ليس له فيه يد، ولا يعلم له موعداً، ولا يدري: أقريبٌ هو أم بعيد، يجعل الله له أمداً ممتدّاً، سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فكلّه غيب في علم الله.

[الآية ٢٦]: والله سبحانه هو المختصّ بالغيب، دون العالمين.

[الآية ٢٧]: والرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته، يُطلعهم على جانب من غيبه، هو هذا الوحي: موضوعه وطريقته والملائكة الذين يحملونه، ومصدره، وحفظه في اللوح المحفوظ... إلى آخر ما يتعلّق بموضوع رسالتهم، ممّا كان في ضمير الغيب، لا يعلمه أحد منهم.

وفي الوقت عينه، يحيط هؤلاء الرسل الكرام، بالأرصاد والحراس من الحَفَظة، للحفظ وللرقابة، يحمونه من وسوسة النفس وتمنّياتها؛ ومن الضعف البشري في أمر الرسالة، ومن النسيان أو الانحراف، ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف.

والخلاصة: أنه يدخل حَفَظَةً من الملائكة، يحفظون قوى الرسول الظاهرة والباطنة، من الشياطين؛ ويعصمونه من وساوسهم.

[الآية ٢٨]: وهذه الحراسة الشديدة ليظهر الله للناس، أجمعين، أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم، غير مشوبة بتخليط من الجن أو من الجنون. وهو، سبحانه، محيطٌ علماً بجميع أحوال أولئك الوسائط، وهو، سبحانه، قد أحصى كل شيء عدداً، فلا تقتصر إحاطته على ما لدى الرسل، بل يحيط بكل شيء إحصاءً وعدّاً، وهو أدق أنواع الإحاطة والعلم.

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب، تُخْتَمُ السورة التي بُدئت بروعة الجن من سماع القرآن، وخُتمت بإحاطة الله الشاملة لمن يؤدون رسالته، وحمايته سبحانه لمن يبلغون دعوته؛ وقد وَسِعَ علمه تعالى السماوات والأرض، وكل ما في الوجود.

المقصد الإجمالي للسورة

اشتملت سورة الجن على مقصدين:

١ ـ حكاية أقوال صدرت عن الجن حينما سمعوا القرآن، كوصفهم له بأنه كتاب يَهْدي إلى الرشد، وأن الله

سبحانه تنزّه عن الصاحبة والولد، وأنهم ما كانوا يظنون أنّ أحداً يكذب على الله، وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي فمُنِعوا، وأنهم لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع، وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار، ومنهم مسلمون وجائرون عادلون عن الحق.

٢ ـ ما أمر النبي (ص) بتبليغه إلى الخلق، ككونه لا يشرك بربه أحداً، وأنه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، وأنّه لا يمنعه أحد من الله إن عصاه، وأنه (ص) لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم، فالعلم لله وحده.

ترابط الآيات في سورة «الجن»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الجِنّ بعد سورة الأعراف، وكان نزولها في رجوع النبي (ص) من الطائف؛ وكان قد سافر إليها، ليدعو أهلها في السنة العاشرة من البعثة، فيكون نزول سورة الجن، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أولها: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ①﴾ وتبلغ آياتها ثماني وعشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: ذكر قصة إيمان الجن، لِمَا فيها من العظة والإنذار للمشركين؛ وكذلك كان الغرضُ من ذكر قصة نوح (ع) في السورة السابقة، وهذا هو وجه المناسبة في ذكر هذه السورة بعدها.

قصة إيمان بعض الجن
الآيات [١ ـ ٢٨]

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ①﴾، فذكر قصة إيمان بعض الجن في خمس عشرة آية منها؛ ثم ذكر سبحانه أنه لو استقام المشركون على طريقة الإيمان، كما استقام من آمن من الجن لأسقاهم ماء غَدقاً؛ وأن من يكفر به يَسْلُكْهُ عذاباً صَعَداً؛ ﴿وَأَنَّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾؛ وأن النبي (ص)، لمّا قام يدعوه تظاهروا عليه، وقد أمره أن يخبرهم بأنه إنما يدعو إلى ربّه ويقوم بما يجب له عليه، وهو لا يملك شيئاً من كفرهم أو إيمانهم؛ وبأنه لن يجيره منه، إلاّ أن يبلّغهم ما أرسله به إليهم؛ ثم ذكر أن من يَعْصيه سبحانه ويَعْصِي رسوله، يُخلّدُه في نار جهنم؛ فإذا رأوا ما يوعدون منها، يعلمون أنهم أضعف ناصراً وأقل عدداً. ثم أمره أن يخبرهم، بأنه لا يدري متى يكون ما يوعدون به من ذلك، لأنه مِن عِلْم الغيب الذي اختص به الله سبحانه، ولا يطلع عليه الا من يرتضيه من رسله، فإنه يَسْلُكُ من بين يديه ومن خلفه رصَداً: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الجن»(*)

أقول: قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها، فلم يظهر لي سوى أنه قال تعالى في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾. وقال في هذه السورة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾. وهذا وجه بيّنٌ في الارتباط(*).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(*) ومن المناسبة بين السورتين: أنه تعالى ذكر في نوح: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ ومضى في بيان كفرهم وضلالهم، حتى دعا عليهم نوح: ثم بيّن في أول الجن: أنهم كالإنس في الإيمان والكفر، وأن لكفار الجن اتصالاً بكفار الإنس، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الآية ١٤]. فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والإنس، وبيان المقارنة بينهما.

مكنونات سورة «الجن»(*)

١ ـ ﴿سَفِيهُنَا﴾ [الآية ٤].

قال مُجاهِد: هو إبليس. أخرجه ابنُ أبي حاتِم(*).

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(*) والطبري في «تفسيره» ٢٩/٦٧.

لغة التنزيل في سورة «الجن»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ⑪﴾.

أي: ذوي مذاهب مختلفة، والقِدَد جمع قِدّة من القَدّ، كالقطعة من «قَطَعَ».

أقول: والوصف بـ ﴿قِدَدًا ⑪﴾، أُريد به البيان والتوكيد.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ⑫﴾.

أقول: الهرب معروف، وهو مصدر هَرَب يَهْرب.

غير أن العربية المعاصرة عرفت «الهُروب»، الذي لم يُؤثَرْ في نص قديم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ⑰﴾.

أقول: وقوله تعالى ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا﴾ أي: يُدخله، وسلكه وأسلكه.

وأصل الفعل يتعدى إلى مفعول واحد، فلمّا تضمّن معنى «يدخل» تجاوزه إلى المفعول الثاني.

وأصل الفعل: من قولنا سلك الخيط في الإبرة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ⑭﴾.

والقاسطون هم الكافرون الجائرون عن طريق الحق.

والقسط هو العدل، والفعل أقسط بمعنى عَدَل، وقَسَط بمعنى جار وظلم. وهذا من غرائب الأفعال في الدلالة بين المجرّد والمزيد.

(*) انتهى هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «الجن»(*)

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الآية ١]. فتحت ألف (أنه) لاعتبار الاسمية.

وقال تعالى: ﴿وَشُهُبًا﴾ [الآية ٨] وواحدها: الشهابُ.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

لكل سؤال جواب في سورة «الجن»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ ولم يقل سبحانه رسول الله أو نبي الله، والمراد به النبي محمد (ص)؟

قلنا: لأنه (ص)، لم يكن في ذلك المقام مرسلاً إليهم، بل اتفق مرورهم به وجوازهم عليه؛ فلو قال تعالى رسول الله، أو نبي الله، لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة إليهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ۝٢٥﴾ مع أن الأمد اسم للغاية، والغاية تكون زماناً قريباً وزماناً بعيداً، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٣٠﴾ [آل عمران]؟

قلنا: أراد بالقريب الحال، وبالمجعول له الأمد المؤجل، سواء أكان الأجل قريباً أم بعيداً.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

المعاني المجازية في سورة «الجن»(*)

في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ١١﴾ استعارة. والمراد بذلك، والله أعلم، كنا ضروباً مختلفة، وأجناساً مفترقة.

والطرائق: جمع طريقة. وهي، في هذا الموضع ، المذهب والنحلة. والقِدَدُ: جمع قِدَّة، وهي القطعة من الشيء المقدود طولاً، مثل فِلذة وفِلَذ، وقِرْبة وقِرَب. وقد غَلبَ على ما كان من القَطْع طولاً لفظُ القَدّ، وعلى ما كان من القطع عَرضاً لفظ القَطّ. فكأنه سبحانه شبّه اختلافهم في الأحوال، وافتراقهم في الآراء بالسُّيور المقدودة، التي تتفرّق عن أصلها، وتتشعّب بعد ائتلافها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ١٥﴾ استعارة. والمراد أنّ نار جهنّم، ونعوذ بالله منها، يُسْتدام وَقودُها بهم، كما يستدام وَقُودُ النار بالحَطب، لأنّ كلّ نار لا بدّ لها من جِشاش يحشّها، ووقود يمدّها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾ استعارة. واللبْد ههنا، كناية عن الجماعات المتكاثرة، التي تظاهرت من الكفّار على النبي (ص)، أي اجتمعوا عليه متألّبين، وركبوه مترادفين.

فكانوا كلِبَد الشَّعر، وهي طرائقه وقِطَعُه التي يَرْكب بعضُها بعضاً. وواحدتها لِبْدة. ومنه قيل: لِبْدة الأسد، وهي الشعر المتراكب على مناكبه. وذلك أبلغ ما شبّهت به

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

الجموع المتعاظلة، والأحزاب المتآلفة.

وقال بعض أهل التأويل: المراد بذلك أن النبي (ص)، لمّا صلّى الصبح ببطن نخلة منصرفاً من حُنين، وقد حضره الوفد من الجن، وخبرُهم مشهور، كادوا يركبون منكبه، ويطأون أثوابه، لمّا سمعوا قراءته، استحساناً لها، وارتياحاً إليها، وتعجّباً منها.

رُوي عن ابن عباس في هذا المعنى، وهو أغرب الأقوال، أنّ هذا الكلام من صلة كلام الجن لقومهم، لما رجعوا إليهم؛ ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ كما ورد في التنزيل؛ وذلك أن النبي (ص)، لما قام ببطن نخلة يصلي بأصحابه، عَجِب الجن الحاضرون من طواعيتهم له، في الركوع والسجود والقيام والقعود؛ فلما رجعوا إلى قومهم، قالوا في جملة ما قصُّوه عليهم: وأنّه لما قام عبدُ الله يدعوه، أي يصلي له، كادوا يكونون عليه لِبَداً. أي كاد أصحابه يركبونه تزاحماً عليه، وتدانياً إليه، واحتذاء لمثاله، واستماعاً لمقاله.

سورة المُزّمِّل

٧٣

أهداف سورة «المزّمّل»(*)

سورة المزّمل سورة مكية، آياتها ٢٠ آية، نزلت بعد سورة القلم.

إنها تحمل النداء الإلهيّ، للنبيّ الكريم، بقيام الليل، وقد جعله الله فريضة في حقّه، نافلة في حق أمته، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الاسراء].

وفي كتب السنّة، ما يفيد أن السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم؛ فقد كان (ص) يعيش بين قومه في الجاهلية، ثم حبّب الله اليه الخلوة، ليتأمّل في ملكوت السماوات والأرض، وليُعِدّ الله هذه النفس الطيبة لِتَحمّل أعباء الرسالة. ثم فَجَأهُ الوحي وهو في غار حِراء، قال له جبريل: اقرأ، قال النبي (ص) ما أنا بقارئ، ثلاث مرات، فقال جبريل، كما ورد في التنزيل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

وقد عاد النبي (ص) إلى خديجة رضي الله عنها وأخبرها الخبر، فقالت له: «أبشر يا ابن عَمّ واثْبُت، فوالذي نَفسُ خديجةَ بيده، إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة».

ثم فتر الوحي مدة عن النبي (ص)، إلى أن كان بالجبل مرة أخرى، فنظر فإذا جبريل، فأدركته منه رجفة، حتى جثا وهوى إلى الأرض؛ وانطلق إلى

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

أهله وهو يرتجف ويقول: «زمّلوني، دثّروني» ففعلوا، وظل يرتجف مّما به من الرَّوْع، وإذا جبريل يناديه، كما ورد في التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾.

وسورة «المزّمّل» تعرض صفحة من تاريخ الدعوة الإسلامية. إنّها تنادي النبيّ الكريم، وتأمره بقيام الليل، والصلاة وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتّل، والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذّبين، والتخلية بينهم وبين الجبّار القهّار.

وتنتهي السورة بلمسة الرفق والرحمة، والتخفيف والتيسير، والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويح برحمة الله ومغفرته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ⑳﴾.

والسورة تمثّل صفحة من جهاد النبي الكريم، وآله وصحبه الأبرار في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه، وحشد جميع الطاقات من أجل هذه الدعوة. فقد قام النبي (ص) في مكة والمدينة، داعياً إلى الله صابراً محتسباً، مهاجراً، مجاهداً، مربّياً، ناشراً لدعوة الله بكل ما يملك، منذ خاطبه تعالى بالقرآن: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾.

وكان قيام الليل هو الزاد الروحيّ، والتعبئة الإلهية لهذا القلب الكريم، حتى يَصْدَعَ بالدّعوة، ويتحمّل في سبيلها كل بلاء، وليصبر ويصابر، وليحتسب كل جهد في سبيل الله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩﴾.

مع آيات السورة

[الآيات ١ ـ ٤]: أمر الله تعالى رسوله الأكرم أن يقوم، من الليل، ثلثه أو نصفه أو ثلثيه؛ فهو مخيّر في ذلك، وأن يقرأ القرآن الكريم على مهل وتؤدة، مع حضور القلب، لتدبّر معانيه، وفهم مقاصده.

[الآية ٥]: والقرآن الكريم يَسَّرَهُ الله تعالى للقراءة، ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل بأثره في القلوب، ثقيل بقيمته الراجحة، ومعانيه الراقية وما فيه من تكاليف وأعباء.

[الآية ٦]: إنّ قيام الليل هو أكبر موافقة بين القلب واللسان، وأعدل قولاً.

[الآية ٧]: وفي النهار متّسع لشؤون المعاش، ولك فيه تصرف في مهام أمورك، واشتغال بمشاغلك.

[الآيتان ٨ ـ ٩]: واتّجه إلى الله بالعبادة وحضور القلب، واذكره، وتضرّع إليه، في إنابة وطاعة وإخلاص؛ سبحانه، ربّ الكون كلّه؛ والتوكّل عليه هو التوكل الواجب في هذا الوجود.

[الآية ١٠]: واصبر على مايقولون في حقّك وحقّ ربك، واهجرهم هجراً جميلاً، بأن تجانبهم وتغضي عن زلاّتهم ولا تعاتبهم.

[الآية ١١]: ثم توعّد المشركين وتهدّدهم، وقال لنبيه: اترك عقابهم لي وحدي، فأنا كفيل بهم، هؤلاء الذين تنعّموا في نعمائي، أمهلهم وقتاً قليلاً، وسترى ما يحلّ بهم.

[الآيــة ١٢]: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي قيوداً ثقيلة توضع في أرجلهم، كلّما أرادوا أن يرتفعوا جذبتهم إلى أسفل، ثم هناك الجحيم.

[الآية ١٣]: والطعام ذو الغُصّة، الذي يمزّق الحلوق؛ والعذاب الاليم، جزاء مناسب لمن كفر بنعمة الله.

[الآية ١٤]: ويمتدّ الهول في يوم القيامة إلى الارض، فتضطرب وتهتزّ؛ وإلى الجبال فتتمزّق أجزاؤها، وتصير كالصوف المنفوش، أو كومة الرمل المهيلة، بعد أن كانت حجارة صمّاء متماسكة.

[الآيتان ١٥ ـ ١٦]: ويلتفت القرآن الكريم إلى أهل مكة فيخاطبهم، ويهزّ قلوبهم هزّاً، ويخلعها خلعاً؛ بعد مشهد الأرض والجبال، وهي ترتجف وتنهار، فيحذّرهم ممّا أصاب فرعون الجبّار، وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر؛ ومضمون القول: لقد أرسلنا إلى فرعون رسولاً، فعصاه، فأخذناه أخذاً وبيلاً؛ وأرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، فاحذروا أن تَعْصوه، فيصيبكم مثل ما أصاب فرعون.

[الآيتان ١٧ ـ ١٨]: وهبوا أنكم لا تُؤخذون في الدنيا، كما أُخذ فرعون؛ فكيف تتقون عذاب يوم القيامة؛ وهو هول يشيّب الولدان، وتنشق السماء من شدّته؛ وكان وعد الله ثابتاً مؤكّداً لا خُلْفَ فيه، وهو سبحانه فعّال لما يريد.

[الآية ١٩]: وأمام هول الآخرة يقول لهم ما معناه: إن هذه الآيات تذكرة وعبرة، فمن شاء اعتبر بها، واتّخذ طريقاً إلى الله وهو آمن سالم، قبل مجيء هذا الهول العصيب.

وفي الآية الأخيرة من السورة، نجد لمسة التخفيف النديّة، ودعوة التيسير الإلهي؛ فقد لبّى النبيّ (ص) الدعوة إلى قيام الليل، ولبّى المسلمون الدعوة، وتجافت جنوبهم عن المضاجع، وقاموا الليل حتّى تورّمت أقدامهم من طول القيام؛ وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الله، سبحانه، يعلم أنّ الرسول (ص) يقوم الليل؛ وأنّه سبحانه يرى تقلّبه (ص) في الساجدين؛ وأنّه سبحانه يعلم أنكم لن تُحْصوا ساعات الليل إحصاءً تاماً، فاذا زدتم على المفروض ثَقُلَ ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بفرض؛ وإن نَقَصْتُم شقّ هذا عليكم، فتاب عليكم ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر؛ وطلب إليكم أن تصلّوا ما تيسّر من الليل، على قدر طاقتكم.

وإن لهذا التخفيف حكمة أخرى، وهي أنه سبحانه علم أنْ سيكون منكم مرضى، وآخرون يسيحون في الأرض، يطلبون من فضل الله بالتجارة أو العلم، وآخرون يقاتلون في سبيل الله، فقد علم الله تعالى أنْ سيأذن لكم في الانتصار ممّن ظلمكم بالقتال، فصلّوا ما تيسّر لكم من صلاة الليل، بدون تقيّد بقدرٍ محدّد، وأقيموا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة، وتصدّقوا بعد ذلك قرضا لله، يُبْقِ لكم خيره، ويردّه الله إليكم أضعافاً مضاعفة. وما تُقَدّموا لأنفسكم من صدقة، أو عمل صالح في الدنيا، تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة، خيراً ممّا أوتيتم في دار الدنيا، وأعظم منه أجراً؛ واتّجهوا إلى الله مستغفرين، إن الله غفور رحيم.

إنّها لمسة الرحمة والتخفيف، بعد عام من الدعوة إلى القيام؛ وقد خفّف الله سبحانه عن المسلمين فجعل قيام الليل لهم تطوّعاً لا فريضة.

أمّا رسول الله (ص) فقد مضى على نهجه مع ربّه، لا يقلّ قيامه عن ثلث الليل، يناجي ربّه ويستمدّ منه العون والتوفيق، في أداء رسالته. ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود].

خلاصة أحكام السورة

أمر الله عز وجل رسوله (ص) بما يأتي:

١ ـ قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه.

٢ ـ قراءة القرآن بِتُؤَدَةٍ وتمهّل.

٣ ـ ذكر ربه ليلاً ونهاراً، بالتحميد والتسبيح والصلاة.

٤ ـ التوكّل على الله سبحانه، والاعتماد عليه.

٥ ـ الصبر على ما يقول الكفّار فيه، من أنّه ساحر أو شاعر؛ وأن يهجرهم هجراً جميلاً بمجانبتهم ومداراتهم؛ وأن يَكِلَ أمرهم إلى ربّهم فهو الذي يكافئهم، وسيرى عاقبة أمرهم.

٦ ـ التخفيف من صلاة الليل، بعد أن شقّ ذلك عليهم لأعذار كثيرة؛ والاكتفاء بما تيسّر من صلاة الليل؛ ففي الصلاة المفروضة غُنْيَةٌ للأمّة، مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار.

ترابط الآيات في سورة «المزمّل»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة المزمّل بعد سورة القلم، وكان نزول سورة القلم فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة، فيكون نزول سورة المزمّل في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ وتبلغ آياتها عشرين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة تهيئة النبي (ص) للدعوة، وقد اقتضى هذا أمْرَهُ بالصبر عليهم وإنذارَهُ لهم. وقد ناسبت، بهذا الإنذار، سياق السورة السابقة في إنذارها، ولهذا ذكرت بعدها.

تهيئة النبي (ص) للدعوة
الآيات [١ ـ ٢٠]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ فأمره بقيام الليل، وترتيل القرآن؛ ليستعين بهذا على ما سيلقي إليه من القول الثقيل، والتكليف الشاق؛ وينشئ نفسا أشدّ موافقة لدعوته وأقوَم قِيلاً؛ ثم أمره سبحانه أن يداوم على ذِكْرِهِ، ويصبرَ على ما يقولون في حقه، وأن يتركه، ومن أبطرتهم النعمة منهم، فإنّه سيمهلهم ثمّ يذيقهم من عذابه أنكالاً وجحيماً؛ وسيهلكهم،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

كما أهلك فرعون حينما عصى رسوله، فأخذه أخذاً وَبِيلاً؛ وهذه عظة لهم، ليدركوا أنفسهم قبل أن يحيق العذاب بهم؛ ثم خَفَّف عليه وعلى أتباعه ما فرضه من قيام معظم الليل، ومداومة ترتيل القرآن، فكلفهم من هذا بما يطيقون، ووعدهم عليه عظيمَ الأجر فقال سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾.

أسرار ترتيب سورة «المزّمّل»(*)

أقول: لايخفى وجه اتّصال أوّلها: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [الآية ٢]. بقوله تعالى في آخر تلك: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن/١٩]. وبقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن/١٨](*).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(*) من المناسبة أنه تعالى لمّا قال في نهاية الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن]. افتتح المزمّل بذكر بداية بإرسال النبي (ص)، وما كلّف به من شعائر العبودية والعبادة والدعوة. وذلك لأنّ النبيّ (ص) بُعث بين يدي الساعة، كما جاء في السنّة؛ وقد قال تعالى في الجن: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الآية ٢٥]. فكأنه قال: هذه المزمّل علم من أعلامها، فهو الذي اصطفاه سبحانه، ليظهره على غيبه، وأنه بين يدي الساعة.

لغة التنزيل في سورة «المزّمّل»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ هي النفس، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع.

أقول: ودلالة ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ على النفس، من باب الصّفة التي حلّت محل الموصوف، فصارت نفسه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾، أي: تَصَرفاً وتقلّباً في مهمّاتك وشواغلك، ولا تفرغ إلاّ بالليل، فعليك بمناجاة الله سبحانه، التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾.

أقول: كان ينبغي، لو كان الكلام في غير القرآن، أن يكون المصدر «تبتُّلاً»، ولكن عُدل عنه إلى غيره، بسبب من مراعاة تناسب الفواصل.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «المزّمّل»(*)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾ والأصل: المُتَزَمِّل، ولكن أدغمت التاء في الزاي و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ مثلها.

وقوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④﴾ فقال السائل عن هذا: قد قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ فلِمَ قال، سبحانه: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾؟ إنّما المعنى «أَوْ نِصْفَه أو زِدْ عَلَيْهِ» لأن ما يكون في معنى تكلم به العرب بغير: «أو»، تقول: «أعْطِهِ دِرْهَماً دِرْهَمَيْنِ ثلاثةً» تريد: «أَوْ دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثلاثَةً»(١).

وقال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧﴾ ومصدر تبتّل «التَّبَتُّل» كما قال سبحانه ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ⑰﴾ [نوح]، وقال الشاعر [من الوافر وهو الشاهد الثالث والاربعون بعد المئتين]:

وَخَيْرُ الأَمْرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْه ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَه اتِّباعا

وقال [من الرجز وهو الشاهد الثاني والاربعون بعد المئتين]:

. . . .

يَجْرِي عَلَيْهَا أَيَّمَا إِجْراءِ

وذلك أنّها إنّما جَرَتْ لأنّها أُجْرِيَتْ.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [الآية ٩]

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في إعراب القرآن المنسوب للزجاج ٢/ ٧٠٥؛ والجامع ١٩/ ٣٥.

بالرفع على الابتداء[1] والجرّ على البدل[2].

وقال تعالى: ﴿مَهِيلًا ۝١٤﴾ تقول: «هِلْتُه» فـ «هو مَهِيل».

وقال تعالى: ﴿كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ بجعل ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ من صفة اليوم، من غير إضافة، لعلة الإضمار.

وقال تعالى: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [الآية ٢٠][3] وقد قرئت بالجر[4] وهو كثير، وليس المعنى عليه، فيما بلغنا، لأنّ ذلك يكون على «أدْنَى من نِصْفِهِ»، و«أدْنَى من ثُلُثِهِ»؛ وكان الذي افترض الثلث، أو أكثر من الثلث، لأنه قرأ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾. وأمّا الذي قرأ بالجر، فقراءته جائزة، على أن يكون ذلك، والله أعلم، أي أنكم لم تؤدّوا ما افترض عليكم، فقمتم أدنى من ثلثي الليل، ومن نصفه ومن ثلثه.

وقال تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ [الآية ٢٠] فـ «هو» و«أنتم» و«أنتما» وأشباه ذلك صفات للأسماء مضمرة كما ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾ [الزّخرُف]. وأمّا من قرأ: (تَجِدُوهُ عندَ اللهِ خَيرٌ)[5] فقد جعلها اسما مبتدأ كما تقول «رأيتُ عبدَ اللهِ أبوه خيرٌ مِنْه»

---

(١) في معاني القرآن ٢/١٩٨ نسبت إلى أهل الحجاز؛ وفي الجامع ١٩/٤٥ إلى أهل الحرمين، وابن محيصن، ومجاهد، وأبي عمرو، وابن اسحاق، وحفص؛ وفي السبعة ٦٥٨ إلى ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وحفص، عن عاصم؛ وفي التيسير ٢١٦ إلى غير من أخذ بالأخرى.

(٢) في معاني القرآن ٣/١٩٨ إلى عاصم، والأعمش؛ وفي الجامع ١٩/٤٥ إلى غير من أخذ بالأخرى؛ وفي السبعة ٦٥٨ إلى عاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي؛ وفي التيسير ٢١٦ إلى أبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.

(٣) القراءة بالنصب في معاني القرآن ٣/١٩٩، نسبت إلى عاصم والأعمش؛ وفي الطبري ٢٩/١٤٠ إلى بعض قرّاء مكة، وعامة قرّاء الكوفة؛ وفي السبعة ٦٥٧ إلى غير نافع، وأبي عمرو، وابن عامر، وفي البحر ٨/٣٦٦ إلى زيد بن علي، وإلى السبعة عدا العربيين، ونافع؛ وفي الكشف ٢/٣٤٥، والتيسير ٢١٦، والجامع ١٩/٥٢، إلى ابن كثير والكوفيين.

(٤) في معاني القرآن ٣/١٩٩ إلى أهل المدينة، والحسن البصري؛ وفي الطبري ٢٩/١٣٩ إلى عامة قرّاء المدينة والبصرة؛ وفي السبعة ٦٥٧ إلى نافع، وأبي عمرو، وابن عامر؛ وفي الكشف ٢/٣٤٥، والتيسير ٢١٦، إلى غير الكوفيين وابن كثير؛ وفي البحر ٨/٣٦٦ إلى العربيين ونافع؛ وفي الجامع ١٩/٥٢ إلى العامة، واختارها أبو عبيد وأبو حاتم.

(٥) القراءة بالرفع هي في الشواذ ١٦٤ إلى أبي السمال وفي البحر ٨/٣٦٧ زاد ابن السميفع. أمّا القراءة بالنصب فنسبت في البحر ٨/٣٦٧ إلى الجمهور.

لكل سؤال جواب في سورة «المزّمّل»(*)

إن قيل: ما معنى وصف القرآن بالثُقل في قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾؟

قلنا: فيه وجوه: أحدها أنه كان يَثْقُل نزولُ الوحي على النبي (ص)، حتى يعرق عرقاً شديداً في اليوم الشاتي. الثاني: أن العمل بما فيه من التكاليف، ثقيل شاق. الثالث: ثقيل في الميزان يوم القيامة. الرابع: أنه ثقيل على المنافقين. الخامس: أنه كلام له وزن ورجحان، كما يقال للرجل العاقل: رزين راجح. السادس: أنه ليس بسفساف، لأن السفساف من الكلام يكون خفيفاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [الآية ١٨] ولم يقل سبحانه منفطرة به، والسماء مؤنثة؟

قلنا: هو على النسبة: أي ذات انفطار. وقيل ذُكِّرت السماء على معنى السقف. وقيل معناه السماء شيء منفطر به. وقيل السماء تذكر وتؤنث.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [الآية ٢٠] ولم يقل تعالى أن لن تحصوهما: أي لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار؟

قلنا: الضمير عائد إلى مصدر، يُقَدِّر معناه: لن تحصوا تقديرهما.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

المعاني المجازية في سورة «المزّمّل»(*)

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ استعارة: لأن القرآن كلام، وهو عَرَض من الأعراض، والثِقَل والخفّة من صفات الأجسام، والمراد بها صفة القرآن بِعِظَم القدر، ورجاحة الفضل، كما يقول القائل: فلان رَصينٌ رزينٌ. وفلان راجحٌ ركين، إذا أراد صفته بالفضل الراجح، والقدْر الوازن.

وفي قوله سبحانه في ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ وقرئ: (وطاءً)(*) استعارة. والمراد بناشئة الليل هٰهنا، ما يُنشأ فعله، أي يُبتدأ به من عمل الليل، كالتهجّد في أثنائه، والتلاوة في آنائه.

من قرأ وَطْئاً بالقَصْر فالمعنى فيه أَن قيام الليل أشد وَطْأً عليك أي أصعب وأشق، كما يقول القائل: هذا الأمر شديد الوطأة علي. إذا وصف بلوغه منه وصعوبتَه عليه ومع أن عمل الليل أشد كلفة ومشقة فهو أقْوَمُ صلاة وقراءة، للمعنى الذي قدمنا ذكره.

ومَن جعل «وطاء» هٰهنا اسماً لما يُستوطأ ويفترش، كالمهاد وما يجري مجراه، فقد ذهب إلى أن عمل الليل أوعث مقاماً، وأصعبُ مراماً.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(*) قرأ أبو العالية، وأبو عمرو، ومجاهد، وابن أبي إسحاق، وحميد، وابن عامر، والمغيرة، وأبو حيوة «وطاء» بالمد؛ وقرأ الباقون ﴿وَطْئًا﴾ بفتح الواو، وسكون الطاء، على وزن بحر؛ انظر «القرطبي» جـ ١٩ ص ٣٩. [والقراءة المثبتة في المصحف الشريف، هي قراءة القصر].

وعندهم، أنّ كل ما يُنشأ بالليل من قراءة، أو تهجّد، أو طروق، أو ترحّل أشقُّ على فاعِلِه، وأصعَبُ على مستعمله، لأنّ الليل موحش هائل، ومَخُوف مُحاذَرٌ. فكل ماوقع فيه مما أومأنا إليه، كان كالنسيب له، والشبيه به.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ استعارة. والمراد بها المضطَرَبُ الواسع، والمجالُ الفاسح. وذلك مأخوذ من السباحة في الماء، وهي الاضطراب في غمراته، والتقلّب في جهاته. فكأنه سبحانه قال: إن لك في النهار متصرَّفاً ومتّسعاً، ومذهباً منفسحاً، تقضي فيه أوطارك، وتبلغ آرابَك.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ استعارة. والمراد بها: أن الولدان الذين هم الأطفال، لوجاز أن يَشِيبُوا لِرائعِ خَطْبٍ، أو طارِقِ كرْبٍ، لشابُوا في ذلك اليوم؛ لعظيم أهواله، وفظاعة أحواله. وذلك كقول القائل: قد لقيتُ، من هذا الأمر، ما تشيب منه النواصي، كنايةً عن فظيع ما لاقى، وعظيم ما قاسى.

سورة المُدَّثِّر

٧٤

أهداف سورة «المدَّثِّر»(*)

سورة المدّثر سورة مكية، آياتها ٥٦ آية، نزلت بعد سورة المزّمّل.

وينطبق على سورة المدّثر، من ناحية سبب نزولها، ووقت نزولها، ما ينطبق على سورة المزّمّل؛ فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة، وإيذاء المشركين للنبي (ص).

ويمكن التوفيق بين هذه الروايات، بأنّ صدر سورة المدّثر أول ما نزل من القرآن الكريم بعد سورة العلق، وهو من أوّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

وأنّ الآيات التالية قد نزلت بعد الجهر بالدعوة، وربما كانت تعني شخصاً معيناً هو الوليد بن المغيرة(١).

وأيًا مًا كان السبب والمناسبة، فقد تضمّنت السورة في مطلعها ذلك النداء العُلْويّ، بانتداب النبي (ص) لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم والتدثّر والدفء، إلى الجهاد والكفاح والمشقة [الآيات من ١ ـ ٧].

ثم تضمّنت بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذّبين بالآخِرة، وبحرب الله المباشرة، كما تضمّنت ذلك سورة المزّمّل سواء بسواء، [الآيات من ٨ ـ ١٧].

وتعيّن سورة المدثر أحد المكذّبين بصفته، وترسم مشهداً من مشاهد كيده، على نحو ما ورد في سورة

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

(١) في ظلال القرآن ٢٩/ ١٨٠

القلم، وربما كان الشخص المعني هنا وهناك واحداً، وقد قيل إنه الوليد بن المغيرة [الآيات ١٨ ـ ٣٠].

ثمّ تتحدّث السورة عن عالم الغيب، ووصف سقر، والملائكة القائمين عليها، وعددهم وامتحان الله لعباده بذلك العدد، وذلك في آية واحدة طويلة هي الآية ٣١.

ثمّ تتحدث عن مشاهد الكون، وأدلتها على وجود الله [الآيات ٣٢ ـ ٣٧].

كما تعرض مقام المجرمين، ومقام أصحاب اليمين، حيث يعترف المكذّبون اعترافاً طويلاً، بأسباب استحقاقهم للارتهان، والقيد في يوم الجزاء والحساب، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم، الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع [الآيات ٣٨ ـ ٤٨].

وفي ظلّ هذا المشهد المخزي، والاعتراف المهين، يُفضي السّياق إلى استنكارا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير، ويرسم لهم مشهداً ساخراً، يثير الضحك والزراية، من نفارهم الحيواني الشَّمُوس [الآيات ٤٩ ـ ٥١].

ويكشف السّياق عن حقيقة الغرور، الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكّر الناصح، ويبيّن أنّه الحسد للنبي (ص)، والرغبة في أن يُؤتَى كل منهم الرسالة، والسبب الآخر هو قلّة التقوى [الآيتان ٥٢ ـ ٥٣].

وفي الختام يجيء التقرير الجازم الذي لا مجاملة فيه، وردّ الأمر كلّه إلى مشيئة الله سبحانه وقدره [الآيات ٥٤ ـ ٥٦].

وهكذا تمثّل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسي، الذي واجه به القرآن الجاهلية وتصوّراتها، في قلوب قريش، كما كافح العناد والكيد، والإعراض الناشئ عن العمد والقصد، بشتّى الأساليب. والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة، واتجاهات سورة المزمّل، وسورة القلم، ممّا يدل على أنها جميعاً نزلت متقاربة، لمواجهة حالات متشابهة.

وسورة المدّثر قصيرة الآيات، سريعة الجريان، منوّعة الفواصل والقوافي، يتّئد إيقاعها أحياناً، ويجري لاهثاً أحياناً، وبخاصّة عند تصوير مشهد هذا المكذّب، وهو يفكّر ويقدّر ويَعْبِس

ويَبْسُر . . وتصوير مشهد سقر، لا تُبقي ولا تَذَر، لوّاحةٌ للبشر.

مع آيات السورة

[الآيات ١ ـ ٧]: بدأت السورة بنداء النبي الكريم (ص) ليقوم بأمر جليل هو إنذار البشرية، وتخليصها من الشرّ في الدنيا، ومن النار في الآخرة.

ثم يوجه الله سبحانه رسوله الأكرم في خاصة نفسه، بأن يُكَبِّر ربه وحده، فهو سبحانه الكبير المتعالي، وهو القوي المتين، وهو على كل شيء قدير. ويوجّهه إلى التطهير بأنواعه، ويشمل طهارة الثوب، وطهارة البدن، وطهارة القلب، ليكون أهلاً للتلقي عن الملأ الأعلى، ويوجهه إلى هجران الشرك، وموجبات العذاب والتحرُّز، والتطهر من مس هذا الدَّنَس.

ويوجهه إلى إنكار ذاته، وعدم المن بما يقدمه من الجهد أو استكثاره أو استعظامه، فكلّ ما يقدّمه الإنسان من خير هو بتوفيق الله وعونه، وذلك يستحق الشكر لله لا المَنَّ والاستكثار.

ويوجهه سبحانه أخيراً إلى الصبر على الطاعة، والصبر على الأذى والتكذيب، وعدم الجزع من أذى المخالفين.

[الآيات ٨ ـ ٣٠]: حينما ينفخ إسرافيل في الصُّور، يواجه الكافرين يومٌ عسير، لا يُسْرَ فيه ولا هَوادَةَ، بل يجدون الحساب السريع والجزاء العادل والعقاب الرادع.

وقد روى ابن جرير الطبري أنّ الآيات نزلت في الوليد بن المُغِيْرة، حينما فكّر في تهمة يلصقها بالنبي(ص) ثم ادّعى أن النبي (ص) ساحر؛ وقد كان الوليد يسمّى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فمالُهُ كثير، فيه الزرع والضَّرْع والتجارة، وله عَشَرَةُ أبناءٍ يشهدون المحافل والمجامع، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهشام وعمارة، وقد بسط الله له الرزق، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان يُسمّى رَيْحانة قريش.

ويتجّه السياق إلى تهديد هذا المشرك، فيقول تعالى ما معناه: خَلِّ بيني وبين هذا المشرك، الذي أخرجته من بطن أمه وحيداً، لا مال له ولا ولد، ثمّ بسطتُ له الرزق والجاه العريض، فكفر بأنعم الله عليه.

لقد أعطيته المال الكثير، ورزقته بنين

من حوله حاضرين شهوداً، فهو منهم في أنس وعِزْوَة، ومهّدت له الحياة ويسّرتها له تيسيراً؛ ثمّ هو يطمع في مزيد من الثراء والجاه. كلا لن نزيده من نِعَمنا، بل سَنُذْهِبُ عنه كلّ ما أنعمنا به عليه، لأنّه كان معانداً ومعارضاً لآيات القرآن الكريم؛ سأكلّفه ما لا يطيق من كُرْبة وضيق، كأنما يصعد في السماء، أو يصعد الجبال الوعرة الشاقة.

إنّه فكّر وتروّى: ماذا يقول في القرآن، وبماذا يصفه حينما سئل عن ذلك، ثمّ لُعِنَ كيف قدّر، ثم نظر إلى قومه في جِدّ مصطنع، وقطّب وجهه عابساً، وقبض ملامح وجهه باسراً ليستجمع فكره، فقال: ما هذا القرآن إلاّ سحر، ينقله محمّد عن السحرة، كمسيلمة وأهل بابل، وليس هذا من كلام الله، وإنّما هو من كلام البشر.

سأُدخله سقر، وماذا تعْلَمُ عنها، إنّها شيء أعظم وأهول من الإدراك، ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ فهي تكنس كَنْساً، وتبلع بلعاً وتمحو محواً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء، ولا يفضل منها شيء، وهي ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ تُلَوّح الجِلْد فتحرقه وتغيّر لونه، على النار تسعة عشر، لا ندري: أأفراد من الملائكة الغلاظ الشداد هم، أم صفوف، أم أنواعٌ من الملائكة وصنوف.

[الآية ٣١]: ولم نجعل المدّبرين لأمر النار إلاّ ملائكة، فمن يطيق الملائكة ومن يغلبهم.

وما جعلنا عددهم تسعة عشر إلاّ امتحاناً للذين كفروا، وليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب بصحّة القرآن، لأنهم يرون أن ما يجيء فيه موافق لما في كتبهم. ويزداد الذين آمنوا ايماناً، وذلك بتصديق أهل الكتاب له. وتستشعر قلوب المؤمنين بحكمة الله في هذا العدد، وتقديره الدقيق في الخلق. وتثبت هذه الحقيقة في قلوب أهل الكتاب، وقلوب المؤمنين، فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله.

وليقول الذين في قلوبهم مرض النفاق، والكافرون: ماذا أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل؟

كذلك يُضِلّ الله من يشاء من المنافقين والمشركين، لسوء استعدادهم، ويَهْدي من يشاء من المؤمنين، لتزكية نفوسهم، وتوجيه استعدادهم للخير، وما يعلم جموع

خلق الله إلاّ هو. وإنّ خَزَنَةَ النار، وإن كانوا تسعة عشر، فإن لهم من الأعوان والجنود من الملائكة، مالا يعلمه إلاّ الله سبحانه، وما هذه السورة إلاّ تذكرةٌ للبشر.

[الآيات ٣٢ ـ ٣٨] : كلا وحق القمر، والليلِ إذا تولّى، والصبحِ اذا تجلّى، إنّ الآخرة وما فيها، أو سقر والجنود التي عليها، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة، المنذرة للبشر، بما وراءهم من الخطر؛ ولكلّ نفس أن تختار طريقها، وأن تتقدم في سبيل الخير أو تتخلّف عنه.

[الآيات ٣٩ ـ ٤٨]: تَعْرِض هذه الآيات مقام أصحاب اليمين، فهم في جنّات يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين.

ويقال لهم: أيّها المجرمون ما الذي أدخلكم في جهنّم؟ فيعترفون اعترافاً طويلاً مفصّلاً، يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر.

قالوا دخلنا جهنّم، لأننا لم نَكُ من المؤمنين، ولم نَكُ نُطْعم المسكين، وكنّا نخوض في الباطل مع الخائضين، وكنّا نكذّب بيوم الجزاء والحساب، حتّى جاءنا الموت الذي يقطع كلّ شكّ، وينهي كلّ ريب، فما تنفعهم بعد ذلك شفاعة الشافعين، لأنه يكون قد انقضى وقت الإمهال.

[الآيات ٤٩ ـ ٥٦]: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ : إذا كان الحال في الآخرة سيكون كما وصفنا في الآيات السابقة، فما بالهم مُعْرِضين عن القرآن؟ كأنهم، في هربهم من سماع كلام الله ونفورهم منه، حمير نافرة، فرّت من أسد تطلب النجاة من بطشه. تلك هيئتهم الظاهرة.

ثمّ يرسم القرآن نفوسهم من الداخل، وما يعتلج فيها من المشاعر؛ فيبين أنّ الحسد هو الذي منعهم من الإيمان، بل يرغب كل منهم أن يكون في منزلة الرسول (ص)، وأن يؤتى صُحُفاً تُنْشر على الناس وتُعْلَن، وإنّما حملهم على ذلك أنّهم لا يصدّقون بالآخرة، ولا يخافون أهوالها، وأن هذا القرآن تذكِرةٌ تُنَبّه وتُذَكّر، فمن أراد الانتفاع بالقرآن قرأه وانتفع به.

وما يهتدون إلاّ بمشيئة الله، هو سبحانه أهل بأن يُتّقى عذابه، وترجّى مغفرته، وهو سبحانه صاحب المغفرة يتفضّل بها على عباده وفق مشيئته.

مقاصد السورة إجمالاً

أمر النبي (ص) بدعوة الخلق إلى الإيمان، وتقرير صعوبة القيامة على أهل الكفر والعصيان، وتهديد الوليد بن المغيرة الذي منحه الله مالاً وفيراً، وعشرة من البنين، وبسط له في العيش؛ لكنه قابل هذه النعم بالجحود والعناد.

وذكر (جل شأنه) كيف استهزأ الوليد برسول الله (ص)، وكيف اتهمه بالسحر، فأنذره تعالى بسقر؛ ثم وَصَفها ووَصَف زبانية الجحيم، وعذاب أهل النار؛ ثم ذكر تعالى الأَبرار ونعيمهم، والمجرمين وصفاتهم، وهي البعد عن الصلاة والإيمان، والبخل بالمال، والخوض في إيذاء المؤمنين. لقد سُلبوا هداية السماء، ففروا من سماع القرآن، فِرارَ حُمُرِ الوحش اذا رأت أسداً. وحرمت قلوبهم بركة التقوى. والله تعالى هو الجدير بأن يتقيه العباد، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة.

ترابط الآيات في سورة «المدّثّر»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة المُدَّثِّر بعد سورة المُزَّمِّل؛ وكان الوحي قد انقطع بعد بدء نزوله مدّة، لم يتفق المؤرّخون عليها؛ وأرجح أقوالهم أنها كانت أربعين يوماً. وقد نزلت سورة المدّثر بعد انقضاء هذه المدة. فيكون نزولها، فيما بين ابتداء الوحي والهجرة إلى الحبشة.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ وتبلغ آياتها ستاً وخمسين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: استنهاض النبي (ص) للدعوة، وقد اقتضى هذا أيضاً إنذار المشركين بما ينتظرهم من العذاب، إذا لم يجيبوا ما يُدْعَوْن إليه؛ فكانت في هذا مثل السورة السابقة، وهذا هو وجه المناسبة في ذكرها بعدها.

استنهاض النبي (ص) للدعوة الآيات [١ ـ ٥٦]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ فأمره أن ينهض للقيام بإنذارهم، ويكبّره، ويطهر ثيابه، ويهجر الرجز، والمنّ على من يُحسن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

إليه، ويصبر لما أمره بتبليغه. ثم ذكر سبحانه أنه إذا نقر في الناقور، كان يومُ عسير عليهم؛ وأمره أن يتركه وَمَنْ خَلَقَه وحيداً، وجعل له مالاً ممدوداً؛ وذكر أنه سيرهقه صَعُوداً، لأنه زعم أن ما ينذر به سِحْرٌ يؤثَر؛ وقد فَصَّل ما فصل في وعيده، إلى أن قال تعالى فيما أوعده به من سَقَر: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾؛ ثم أنكر أن تكون لهم ذكرى، فأقسم بالقمر وما ذكر معه، أنها لهم إحدى الكُبَر، من دَرَكات جهنم السبع، وأنها نذير للبشر؛ فمن شاء أن يتقدّم إلى الخير فليتقدّم، ومن شاء أن يتأخر عنه فليتأخر؛ فكل نفس مأخوذة بما كسبت إلا أصحابَ اليمين، فهم في جنّات يتساءلون عمّا سلك المجرمين في سقر؛ فيجيبونهم بأنهم لم يكونوا من المصلّين، إلى غير هذا مما يذكرونه من أفعالهم؛ ثم أنكر عليهم (سبحانه) أن يُعْرِضوا بعد هذا عن التذكرة، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾. وذكر أن كل واحد منهم يريد أن تنزل عليه صحيفة من السماء، تأمره باتّباع ما يُدْعى إليه؛ ثم ردعهم عن هذه الإرادة، وذكر سبحانه أن عدم خوفهم من الآخرة هو السبب في إعراضهم عن الإيمان به، ورَدَعهم أيضاً عن هذا الإعراض، وذكر أنه تذكرة بليغة كافية فمن شاء ذكّره بها: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «المدّثّـر»(*)

أقول: هذه السورة متآخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي (ص)، وصَدْرُ كليهما نازل في قصة واحدة. وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول السُّوَر: أن المدَّثِّر نزلت عَقِبَ المُزَّمِّل. أخرجه ابن الضريس. وأخرجه غيره عن جابر بن زيد[1].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وفيها كذلك زيادة: إعلام بالساعة وأهوالها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ إلى ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾.

مكنونات سورة «المدّثّر»(*)

١ ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾.

أخرج الحاكم[١] عن ابن عبّاس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة.

٢ ـ ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾.

قال أبو مالك، وسعيد بنُ جُبير: كانوا ثلاثة عَشَرَ ابناً. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[٢].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في «المستدرك» ٢/٥٠٦ قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه»، وأقرّه الذهبي. والأثر أيضاً في «تفسير الطبري» ٢٩/ ٩٦.

(٢) وأخرج الطبري في «تفسيره» ٢٩/ ٩٧ عن مجاهد، أنهم كانوا عشرة.

لغة التنزيل في سورة «المدّثّر»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾.

أقول: وقوله تعالى: ﴿نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ بيان عن حلول يوم القيامة.

(الناقور): ما ينفخ فيه من أسماء الأدوات، وكثير من هذه الأسماء جاء على «فاعول».

٢ ـ وقال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: سأغشيه عَقَبةً شاقَّة المصعد.

أقول: وبناء فَعُول للأسماء معروف في العربية، فمنه الصَّعُود والهَبُوط والحَدُور؛ وغير ذلك.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أقول: وقد جاء قوله أيضاً: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

وهذا يعني: أن «فعيل» بمعنى «مفعول» لا يستوي فيه المذكر والمؤنث دائماً، فقد تلحقه الهاء، والآيتان شاهدان على ذلك. وليس من ذهب إلى أن «رهين» في الآيتين اسم وليس صفةً بحجة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

المعاني اللغوية في سورة «المدّثّر»(*)

قرأ بعضهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ بالجزم[1] على أنها جواب النهي. والقراءة المثبتة في المصحف بالرفع، أي: ولا تَمْنُنْ مستكثراً؛ وهو أجود المعنيين.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦﴾ أي: معانداً.

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣﴾. و«دَبَرَ» في معنى «أَدْبَرَ». يقولون: «قَبَحَ اللهُ ما قَبَلَ منهُ وما دَبَر»[2] وقالوا «عامٌ قَابِلٌ»، ولم يقولوا «مُقْبِلٌ».

وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦﴾. فانتصب ﴿نَذِيرًا﴾ لأنه خبر لـ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥﴾، أي لأنه خبر للمعرفة، وقد حسن عليه السكوت، فصار حالاً، وهي «النَذِير» كما تقول «إِنَّهُ لَعبْدُ اللهِ قَائِماً»، وقال بعضهم إنما هُوَ: «قُمْ نَذِيراً فَأَنْذِر».

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ أي: إنَّ القرآن تَذْكِرَةٌ.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) في الشواذ ١٦٤، والمحتسب ٢/٣٣٧، إلى الحسن، وزاد في الجامع ١٩/٦٩ و٦٧ ابن مسعود. أما في البحر ٨/ ٣٧٢، فابدل، بابن مسعود، ابنَ أبي عبلة.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٧٥ و ٢٧٦، جاء بأمثلة، تدل على قوله: بتساوي الفعلين المزيد والمجرد في المعنى. ورآهما الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٠٤، لغتين.

لكل سؤال جواب في سورة «المدّثّر»(*)

إن قيل: ما الحكمة من قوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قلنا: قيل معناه: أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا. وقيل إنه تأكيد.

فإن قيل: ما فائدة التكرار في قوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ ومعناهما واحد؟

قلنا: معناه لا تبقي للكفار لحماً، ولا تذر لهم عظماً. وقيل معناه لا تبقيهم أحياء، ولا تذرهم أمواتاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية ٣١] وما سبق من وصفهم، بالاستيقان وازدياد الإيمان، دلّ على انتفاء الارتياب؛ والجمل كلّها متعلّقة بعدد خَزَنَةِ النار. والمعنى يستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ما جاء به محمّد (ص) حق، حيث أخبر عن عدد خَزَنَة النار بمثل ما في التوراة، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيماناً بالنبي (ص) والقرآن، حيث وجدوا ما أخبرهم به مطابقاً لما في كتابهم؟

قلنا فائدته التأكيد، والتعريض أيضاً بحال مَنْ عداهم مِنَ الشاكّين، وهم الكفّار والمنافقون؛ فمعناه: ولا يرتاب هؤلاء كما ارتاب أولئك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [الآية ٣١] يعني حصر

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

عدد الخَزَنَة في تسعة عشر، وذلك ليس بمثل.

قلنا: هو استعارة، من المثل المضروب، ممّا وقع غريباً وبديعاً في الكلام، استغراباً منهم لهذا العدد، واستبداعاً له؛ والمعنى: أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب، وأيّ حكمة قصد في جعل الخَزَنَة تسعة عشر لا عشرين. الثاني: أنّ المثل هنا بمعنى الصفة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد/٣٥] ماذا أراد الله بهذا العدد، صفة للخزنة.

فإن قيل: لِمَ طابق قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾، وهو سؤال للمجرمين، قوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وهو سؤال عنهم، وإنما المطابق: يسألون المجرمين أو يتساءلون عن المجرمين ما سلكهم في سقر: أي يسأل أهل الجنة بعضهم بعضاً عن أهل النار؟

قلنا. قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ [الآية ٤٢] ليس بياناً للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عن المجرمين؛ فالمسؤولون من أهل الجنّة ألقوا إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين؛ وذلك أنّ المؤمنين إذا أخرجهم الله تعالى من النار، بعدما عذّبهم بِقَدْر ذنوبهم، وأدخلهم الجنّة، يسألهم بعض أصحاب اليمين عن حال المجرمين، وسبب تخليدهم، فيقول المسؤولون: قلنا لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم من النار وإدخالهم الجنّة، صاروا من أصحاب اليمين. وقيل المراد بأصحاب اليمين، الملائكة عليهم السلام. وقيل الأطفال، لأنهم لا يُرتهنون بذنوب، إذ لا ذنوب لهم.

المعاني المجازية في سورة «المدّثّر»[*]

في قوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾ استعارة على بعض التأويلات: وهو أن تكون الثياب ههنا كناية عن النفس، أو عن الأفعال والأعمال الراجعة إلى النفس. قال الشاعر[1]:

ألاَ أبْلِغْ أبَا حَفْصٍ رسولاً
فِدًى لَكَ مِنْ أخِي ثِقَةٍ إزاري

قيل: أراد فِدًى لك نفسي. وكذلك قول الفرزدق:

سكَنتُ جروتها[2] وقلت لها اصبري
وشَدَدْتُ في ضيقِ المَقامِ إزاري

أي شددت نفسي، وذمرت قلبي. والإزار والثياب يتقارب معناهما. وعلى هذا فسّروا قول امرئ القيس:

فسُلّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ[3]

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) هو بقيلة الأكبر الأشجعي، وكنيته أبو المنهال. شاعر إسلامي. وله خبر مع عمر بن الخطاب (رض)، بشأن رجل كان والياً على مدينتهم اسمه جعدة بن عبد الله، وكان له شأن غير مرضي مع النساء. فأرسل الشاعر بقيلة أبياتاً إلى عمر يستعديه على هذا الوالي. والقصة كاملة في «لسان العرب». وذكر ابن مطرف الكناني في «القرطين» الأبيات في ص ٨٠ جـ ٢، ولم ينسبها لقائلها، واكتفى بقوله: روي في بعض الحديث، أن رجلاً كتب إلى عمر بن الخطاب. وفي مادة أزد في «لسان العرب» أن اسمه نفيلة، والتصويب عن «المؤتلف والمختلف» ص ٦٢، حيث ورد في باب الباء لا النون.

(2) في ديوان الفرزدق ص ٣٢٢.

فضربت جروتها وقلت لها اصبري
وشددت في ضيق المقام إزاري

وضرب الجروة: كناية عن العزم والتصميم على الأمر.

(3) البيت بكماله هو:

وإنْ تكُ قد ساءتكِ منّي خليقةٌ
فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تنسُلِ

أي نفسي من نفسك، أو قلبي من قلبك.

ويقولون: فلان طاهر الثياب، أي طاهر النفس، أو طاهر الأفعال. فكأنّه سبحانه قال: ونفسَك فطهِّر، أو أفعالك فطهِّر.

وقد يجوز أن يكون للثياب ههنا معنى آخر، وهو أن الله سبحانه سمّى الأزواج لباساً، فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة/ ١٨٧] واللّباس والثّياب بمعنًى واحد. فكأنّه سبحانه أمره أن يستطهر النساء. أي يختارهن طاهرات من دنس الكفر، ودَرَن العيب، لأنهن مظانُّ الاستيلاد، ومضامُ الأولاد.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ استعارة، والمراد بها انكشاف الصبح بعد استتاره، ووضوحه بعد التباسه، تشبيهاً بالرجل المُسْفِر الذي قد حَطَّ لثامه، فظهرت مجالي وجهه، ومعالم صورته.

سورة القِيَامَة

٧٥

أهداف سورة «القيامة»(*)

سورة القيامة سورة مكية، آياتها ٤٠ آية، نزلت بعد سورة القارعة.

هي سورة تتحدث عن القيامة، وعن النفس اللوّامة؛ وتحشد على القلب البشري، من الحقائق والمؤثرات، والصور والمشاهد، ما لا قِبَلَ له بمواجهته ولا التفلّت منه.

ومن تلك الحقائق الكبيرة، التي تحشدها السورة في مواجهة القلب البشري، حقيقة الموت القاسية الرهيبة، التي تواجه كلّ حي، وتتكرّر كلّ لحظة، ويواجهها الكبار والصغار، والأغنياء والفقراء والأقوياء والضعاف، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً، هو الاستسلام والخضوع لقدرة العلي القدير ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾.

ومن تلك الحقائق، التي تعرضها السورة، حقيقة النشأة الأولى؛ وأن مَنْ خَلَقَ الإنسان، من نطفة، قادر على أن يعيده مرة أخرى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾.

ومن المشاهد المؤثرة، في السورة، مشهد القيامة، وقد وقف الجميع للحساب، وزاغت الأبصار، واشتدّ الهول، ولقي كل إنسان جزاءه: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧)﴾... إلخ.

ومن هذه المشاهد: مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربّهم، المتطلعين إلى وجهه الكريم، ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

﴿نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

وهكذا يشعر القلب، وهو يواجه هذه السورة، أنه محاصر لا يستطيع الهروب، مأخوذ بعمله لا يستطيع الإفلات، لا ملجأ له من الله ولا عاصم. وهكذا تعالج السورة عناد المشركين وإصرارهم، وتُشعر الإنسان بالجِدّ الصارم الجازم، في شأن القيامة، وشأن النفس، وشأن الحياة المقدّرة بحساب دقيق. وقد لَوَّنت السورة وزاوجت بين حقائق الآخرة، وحقائق الخلق والإبداع، ومشاهد الموت والحساب، وتكفّل الله بشأن القرآن وحفظه. وتلك خصيصة من خصائص الأسلوب القرآني، حيث يخاطب القلب البشري بشتّى الأساليب والمؤثّرات والحقائق والمشاهد، ممّا يأخذ عليه كل طريق، ويقوده إلى الإذعان والتسليم.

مع آيات السورة

[الآيتان ١ ـ ٢]: يقسم الله تعالى بيوم القيامة وعظمة هوله، وبالنفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات؛ يقسم أن البعث حق.

[الآيتان ٣ ـ ٤]: يردّ سبحانه على بعض المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين، صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية، الذاهبة في التراب، المتفرّقة في الثرى، وإعادة بعث الإنسان حياً.

والنّص يؤكّد عملية جمع العظام، بما هو أرقى من مجرد جمعها، وهو تسوية البنان، وتركيبه في موضعه كما كان؛ وهي كناية عن إعادة التكوين البشري بأدق ما فيه، حتّى يتمثل الإنسان بشراً سوياً، لا يَنقُصه حتّى تسوية أصابعه، وما حملت من خاصّيات مميزة.

[الآيتان ٥ ـ ٦]: لا يجهل ابن آدم أنّ ربه قادر على أن يجمع عظامه، ولكنه يريد أن يداوم على فجوره، ولا يتخلى عنه؛ ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث، ويستبعد مجيء القيامة.

[الآيات ٧ ـ ٩]: ذكر سبحانه، من علامات يوم القيامة، أموراً ثلاثة:

١ ـ فالبصر يخطف ويتقلّب سريعاً سريعاً، تقلّب البرق وخطفه.

٢ ـ والقمر يَخيف ويُطْمَس نوره.

٣ ـ والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق، ويختل نظامها الفلكي المعهود، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق.

[الآيات ١٠ ـ ١٢]: يتساءل الإنسان المرعوب، أين المفرّ من جهنّم؟ وهل من ملجأ منها؟

لا ملجأ ولا وقاية ولا مفر من قهر الله وأخذه؛ فالرجعة إليه والمستقرّ عنده، لا مستقر عند سواه.

قال السُدّيّ: كانوا إذا فزعوا في الدّنيا تحصّنوا بالجبال، فقال الله لهم لا وزر يعصمكم مني.

[الآية ١٣]: يخبر الانسان حين العرض والحساب بجميع أعماله قديمها وحديثها، أوّلها وآخرها، صغيرها وكبيرها.

وفي الحديث: «سبع يَجْري أجْرُها للعبد بعد موته وهو في قبره: مَنْ عَلَّم عِلْماً، أو أجْرىَ نهراً، أو حَفَر بئراً، أو غَرَسَ ظلاً، أو بَنَى مسجداً، أو وَرَّثَ مصحفاً، أو ترك وليّاً يستغفر له بعد موته».

[الآيتان ١٤ ـ ١٥]: بل الإنسان على نفسه بصيرة، بل الإنسان حجة بيّنة على نفسه، وفي ذلك اليوم تنطق جوارحه بما فعل؛ فسَمْعُه وبصره ويداه ورجلاه، وجميع أعضائه تشهد عليه، ويتضح الحق، ولو جاء بالأعذار كلها.

[الآية ١٦]: تكفّل الله بالقرآن، وَحْياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وليس للرسول (ص) من أمره إلاّ حمله وتبليغه.

وقد كان الرسول الأمين شديد اللّهفة والحرص على استيعاب القرآن وحفظه، ممّا كان يدعوه إلى متابعة جبريل (ع) في التلاوة آيةً آية، وكلمة كلمة.

فلمّا نَزَلت هذه الآية، كان رسول الله (ص) إذا أتاه جبريل، أطرق وسكت، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله.

[الآيات ١٧ ـ ١٩]: إن علينا جَمْعَه في صدرك الشريف، وقراءته على لسانك، فلن تنساه أبداً، بل نحن سنجمعه في صدور المؤمنين، ونحفظ قراءته. فاذا تلاه عليك المَلَك فاستمع

له، ثم اقرأه كما أقرأك؛ ثم إنّا بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونلهمك معناه.

[الآيتان ٢٠ ـ ٢١]: إنكم يا بني آدم خلقتم من عَجَلٍ وطُبِعْتم عليه، فَتعْجلون في كلّ شيء؛ ومن ثَمّ تحبون العاجلة، وتَذَرُون الآخرة.

[الآيتان ٢٢ ـ ٢٣]: في ذلك اليوم، يوم القيامة، ستكون هناك وجوه حسنة ناعمة، تنظر إلى جلال الله، وتتمتّع برضوانه، وهي متعة دونها كل متعة.

إن روح الانسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليلة القمراء، أو الليل الساجي، أو الفجر الوليد، أو الظل المديد، أو البحر العباب، أو الصحراء المنسابة، أو الروض البهيج، أو الطلعة البهية، أو القلب النبيل، أو الإيمان الواثق، أو الصبر الجميل. . . إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود، فتغمرها النشوة، وتفيض بها السعادة. فكيف بها وهي تنظر إلى جمال ذات الله؟ وتستمتع بهذه السعادة الغامرة، التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصوّر حقيقتها إدراك؟

[الآيتان ٢٤ ـ ٢٥]: ووجوه الفجّار تكون يوم القيامة عابسة كالحة، مستيقنة أنّها ستصاب بداهية عظيمة تَقْصِم ظهرها وتُهلكها.

[الآيات ٢٦ ـ ٣٠]: تعرض الآيات مشهد الاحتضار، حينما تبلغ الروح أعالي الصدر، وتُشرف النفس على الموت، ويقول أهل المُحْتَضَر: من يرقيه للشفاء ممّا نزل به؟ والتمسوا له الأطباء فلم يُغْنُوا عنه من قضاء الله شيئاً؛ وأيقن المحْتَضَر أنّ ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد. وبَطَلَت كل حيلة، وعَجَزَت كل وسيلة، والتوت ساقُه بساقِه فلا يقدر على تحريكهما. ويتبيّن الطريق الواحد، الذي يُساق إليه كلّ حي في نهاية المطاف: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

إن المشهد يكاد يتحرّك وينطق، وكل آية ترسم حركة، إنه مشهد الموت الذي ينتهي إليه كلّ حي، الموتِ الذي يصرع الجبابرة، بالسهولة نفسها التي يصرع بها الأقزام، ويقهر المتسلّطين، كما يقهر المستضعفين، الموتِ الذي لا حيلة للبشر فيه، وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه.

[الآيــات ٣١ ـ ٣٣]: ورد أن هــذه الآيات تَعْنِي شخصاً معيّناً بالذات، قيل هو أبو جهل: (عمرو بن هشام)، وكان يجيء أحياناً إلى رسول الله (ص)، يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدّب ولا يَخْشَى. ويؤذي رسول الله (ص) بالقول، ويصدّ عن سبيل الله؛ ثم يذهب مختالاً بما فعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنه لم يفعل شيئا يذكر، و(يتمطّى) أي يمط في ظهره ويتعاجب تعاجباً ثقيلاً كريهاً.

وكم من أبي جهلٍ في تاريخ الدعوة إلى الله، يسمع ويُعْرِض، ويتفنّن في الصّدّ عن سبيل الله، والأذى للدعاة.

[الآيتان ٣٤ ـ ٣٥]: ويل لك مرة بعد أخرى، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كلّ شر وهلاك؛ وهو تعبير اصطلاحي يتضمن التهديد والوعيد، ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، أي يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى.

روى قتادة «أن النبي (ص) أخذ بِيَدِ أبي جهل، فقال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، فقال عدو الله: أتوعدني يا محمّد، والله لا تستطيع أنت وربك شيئاً، وإنّي لأعز مَنْ مشى بين جبليها». فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين.

[الآية ٣٦]: أيحسب الكافر أن يُترك مهملاً، لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُبْعث ولا يُجازى؟ لقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علّة لها ولا هدف ولا غاية: أرحام تدفع، وقبور تبلع، وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاخر؛ فلفَتَتِ الآية نظر الإنسان إلى التقدير والتدبير في حياته؛ وأنّه لا بدّ من البعث والجزاء، ليتميّز الصالح من الطالح، والمؤمن من الكافر؛ ثمّ يأتي ما بعدها بالدلائل الواقعية على هذا القول.

[الآيــات ٣٧ ـ ٣٩]: فــمــا هــذا الانسان؟ مم خُلِقَ؟ وكيف كان؟

ألم يَكُ نطفة صغيرة من الماء من مَنِيّ يراق؟ ألم تتحول هذه النطفة إلى علقة ذات وضع خاص في الرحم، تعلق بجدرانه لتعيش وتستمدّ الغذاء؟ فمن ذا الذي ألهمها هذه الحركة؟ ومن ذا الذي وَجَّهها هذا الاتجاه؟

ثم من ذا الذي خلقها بعد ذلك الحين جنيناً معتدلاً منسق الأعضاء؟ مُؤَلَّفاً جِسْمُه من ملايين الملايين من الخلايا الحيّة، وهو في الأصل خليّة

واحدة مع بويضة؟

ومن ذا الذي قاد هذه الخلية، وهي خليقة صغيرة ضعيفة، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب؟

ثمّ في النهاية: من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة الذّكَر والأنثى؟.

إنّه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبّرة، التي قادت النطفة المراقة في طريقها الطويل، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

[الآية ٤٠]: وفي ختام السورة يجيء هذا الاستفهام القوي الحاسم: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾؟: أي أليس الذي أنشأ هذا الخلق السويّ، من هذه النطفة المراقة، بقادر على أن يعيده كما بدأه؟

أليس الفعّال، للتدبير والتقدير والنشأة الأولى، بقادر على البعث والإحياء مرة أخرى؟.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم/ ٢٧].

وإذا سمِعَ المؤمن هذه الآية الأخيرة من سورة القيامة فليقل: بلى قادر.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم، وصَحّحَهُ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله (ص) من قرأ منكم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾﴾ وانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾، فليقل بَلَى، وأنا على ذلكم من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾، فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، فليقل بلى، ومن قرأ المرسلات فبلغ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، فليقل آمنا بالله».

مقصود السورة

بيانُ هول القيامة، وهيبتِها، وبيان إثبات البعث وتأثير القيامة في أعيان العالم، حيث يَزُوغ البصر، ويُظْلِم القمر، وتتكدّر الشمس، ويفزع الانسان ويقول أين المفر؟

وفي ذلك اليوم سينال كل إنسان جزاء عمله.

وبيّنت السورة آداب سماع الوحي، والوعد باللقاء والرؤية؛ وبيّنت هول الاحتضار، وقدرة الله تعالى على البدء والإعادة، وبعث الموتى وحسابهم وجزائهم، في قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «القيامة»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة القيامة بعد سبع سُوَرٍ من سورة النجم، وكان نزول سورة النجم فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة القيامة في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾. وتبلغ آياتها أربعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إثبات البعث وما يكون فيه من حساب وثواب وعقاب. وبهذا يكون سياقها في الإنذار والترهيب والترغيب أيضاً، ويكون ذكرها مناسباً للسورة المذكورة قبلها.

إثبات البعث
الآيات [١ ـ ٤٠]

قال الله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾، فذكر سبحانه أنه لا يقسم بهذا على بعثهم لأنه أظهر من أن يحتاج إلى قسم، وأنكر ما يستبعدون من جمع العظام بعد تفريقها؛ ثم ذكر جلّ وعلا، أنه قادر على جمع العظام وتسوية البنان كما كان قبل الموت؛ وأبطل ما يريدونه من مضيهم في فجورهم؛ ثم ذكر، جلّت قدرته، أنهم يسألون مستبعدين: أيّان يوم القيامة؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وأجاب عن هذا بأنه إذا جاءت علامات هذا اليوم يتمنون أن يَفِرُّوا منه ولا مفرّ، وبأنه لا بد من مصيرهم إليه، لينبئ كل واحد بما قدّم وأخّر؛ وتُبْصر كل نفس عملها في كتابها، فلا تُقْبَل معذرة عنه. ثم ذكر، سبحانه، ما يكون من نهي الإنسان عن التعجل في قراءة كتابه قبل أن تُجمع فيه أعماله؛ وأَمَرَهْ أن ينتظر حتى يُقرأ عليه، ثم يتبعه بالإقرار به. وذكر أن هذا التعجُل ناشئ من حبهم العاجلة ونسيانهم الآخرة؛ وأنه، بعد عرض الأعمال، تكون وجوه أصحاب الحسنات ناضرة، وتكون وجوه أصحاب السّيئات باسرة. ثم ختم السورة بأنه لا بدّ، بعد موتهم، من أن يساقوا إليه وليس معهم صدقة ولا صلاة، ولكن تكذيبٌ وإعراضٌ وكِبَرْ؛ وذكر، جلّ وعَلاَ، أن مَنْ هذا شأنه أولى له فأولى، ثم أولى له فأولى، وأنه يَحْسَب أن يُترك من غير بعث وحساب، وقد كان نطفة ثم علقة، فخلقه فسوّاه، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

مكنونات سورة «القيامة»(*)

١ ـ ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

قال مُجاهِد، وغيرُه: نَزلتْ في أبي جهل. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحمات الأقران في مُبهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

لغة التنزيل في سورة «القيامة»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

والمراد: ﴿قراءته﴾.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾.

والفاعل مضمر يراد به النفس، ولم تذكر للعلم بها، وهي نظير قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يتَبَختر، وأصله: يتمطّط أي يتمدّد، لأن المتبختر يمدّ خطاه، وقيل: هو من المَطَا، أي: الظهر لأنه يلويه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

المعاني اللغوية في سورة «القيامة»(*)

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ أي: على أنْ نَجمعَ بَنانَه. أي: بَلَى نَجْمَعُها قادِرين. وواحد «البَنانِ»: بَنانَةٌ.

وقال: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ أي: أينَ الفِرار. وقال الشاعر [من المديد وهو الشاهد الثالث والسبعون بعد المئتين]:

يا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلَيْبَاً

يا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ؟

لأنَّ كُلَّ مصدرٍ يُبنى هذا البناء فإنما يجعل «مَفْعِلاً». واذا أراد المكان قال (المَفِرّ): وقد قرئت (أَيْنَ المَفِرّ) لأنَّ كلَّ ما كانَ فعلُه على «يفعِل» كان «المَفْعِل» منه مكسوراً نحو «المَضرِب»، اذا أردت المكان الذي يضرب فيه.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: حَسَنَةٌ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ يعني، والله أعلم، بالنظر إلى الله إلى ما يأتيهم من نعمه ورزقه. وقد تقول: «وَاللهِ ما أَنْظُرُ إلاّ إلَى اللهِ وإِلَيْكَ» أي: أنتظر ما عند الله وما عندك.

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ فجعله هو البصيرة كما تقول للرجل: «أَنْتَ حُجَّةٌ على نَفْسِكَ».

وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ أي: فَلَمْ يصدّق ولم يصلّ. كما تقول «ذَهَبَ فَلاَ جاءَني ولا جاءَك».

وقال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ وقرأ بعضهم (يُحيِ الموتى) فأخفى

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

وجعله بين الإدغام وغير الإدغام، ولا يستقيم أن يكون هٰهنا مدغماً لأنّ الياء الآخرة ليست تَثْبُت على حال واحدٍ، إذ تصير ألفاً في قولك «يحْيَا» وتحذف في الجزم، فهذا لا يلزمه الإدغام، ولا يكون فيه إلاّ الإخفاء، وهو بين الإدغام وبين البيان.

لكل سؤال جواب في سورة «القيامة»(*)

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ والقارئ على النبي (ص) إنما هو جبرائيل (ع)؟

قلنا: معناه فإذا جمعناه في صدرك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾ أي: إن علينا جمعه وضمّه في صدرك فلا تعجل بقراءته قبل أن يتمّ حفظه. وقيل إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى، لأن جبريل (ع) يقرأه بأمره كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر، مع أن المباشر لها أعوانهم أو أتباعهم.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ والذي يوصف بالنظر الذي هو الإبصار والإدراك، إنما هو العين دون الوجه؟

قلنا: قيل إن المراد بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة لا الوجه الذي هو العضو؛ ولا أرى هذا الجواب مطابقاً لقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤﴾ لأن العبوس والقطوب إنما يوصف به الوجه الذي هو العضو، ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ الأعضاء المعروفة قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين].

فإن قيل: النطفة المنيّ، فما الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا: النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة، لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير؛ ومنه الحديث «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوازاً» أراد: بَحْرَ المشرق والمغرب.

المعاني المجازية في سورة «القيامة»(*)

في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾، استعارة. والمراد، والله أعلم، أن الإنسان حجة على نفسه في يوم القيامة، وشاهدٌ عليها بما اقترفت من ذنب، واحتملت مِنْ وزر. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ (وإن أَلْقى معاذيره). أي هو، وإنْ تعلَّق بالمعاذير، ولفَّق الأقاويل، شاهدٌ على نفسه بما يوجِب العقاب، ويَجُرُّ النكال.

وقال الكسائي: المعنى: بل عَلى نفْس الإنسان بصيرة. فجاء على التقديم والتأخير. أي عليه من الملائكة رقيب يرقبه، وحافظ يحفظ عمله. وقال أبو عبيدة: جاءت هذه الهاء في بصيرة، والموصوفُ بها مذكَّر، كما جاءت في علاَّمة، ونسَّابة، وراوية، وطاغية. والمراد بها المبالغة في المعنى الذي وَقَع الوصْف به.

ووجه المبالغة في صفة المَلَكِ المُحْصي لأعمال المكلَّف بأنه بصيرة، أنَّ ذلك المَلَكَ يتجاوز علم الظواهر إلى عِلْم السرائر، بما جعل الله تعالى له على ذلك من الأدلة، وأعطاه من أسباب المعرفة. فهو، للعلة التي ذكرناها، يُوفي على كل رقيب حافظ، ومُراعٍ مُلاحظ.

والتأويل الآخر يَخْرُج به الكلام عن حيِّز الاستعارة. وهو أن تكون المعاذير ههنا من أسماء السُّتور، لأن أهل اليَمَن يسمُّون السِّتر بالمعذار، فكأن المراد أن الإنسان رقيب على نفسه، وعالم

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرَّخ.

بِمُستتيرٌ غيبه، في ما يقارفه من معصية، أو يقاربه من ريبة، وإن ألقى ستوره مستخفياً، وأغلق أبوابه متوارياً.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ استعارة على أكثر الأقوال. والمرادُ بها، والله أعلم، صفةُ الشِّدَّتين المجتمعتين على المرء من فراق الدنيا، ولقاء أسباب الآخرة. وقد ذكرنا فيما تقدم مذهبَ العرب في العبارة عن الأمر الشديد، والخطب الفظيع، بذِكْر الكشف عن الساق، والقيام عَنْ ساق. فلا فائدة في تكرير ذلك وإعادته.

وقد يجوز أن يكون السَّاق ههنا جَمْعَ ساقة كما قالوا: حاجةٌ وَحَاجٌ. وغاية وغايٌ وآيةٌ وآي. والساقةُ: هم الذين يكونون في أعقاب الناس يحفِّزونهم على السير، وهذا في صفة أحوال الآخرة وَسوْق الملائكة السابقين بالكثرة، حتى يلتفَّ بعضهم ببعض من شديد الحفز، وعنيف السير والسَّوق. ومما يقوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾.

والوجه الأول أقرب، وهذا الوجه أغرب.

سورة الإنسان

٧٦

أهداف سورة «الإنسان»(*)

سورة الانسان سورة مكيّة، وقيل مدنية، آياتها ٣١، نزلت بعد سورة الرحمن.

وقد اختُلف في مكّيتها ومدنيّتها. وفي المصحف المتداول أنها مدنية، ولكنّ آيات السورة وسياقها وموضوعاتها تحمل الطابع المكّي، وهي أقرب إلى أن تكون مكّية.

والمكّي من القرآن هو ما نزل بمكّة قبل الهجرة، والمدنيّ هو ما نزل بالمدينة بعد الهجرة.

وهناك سور متفق على مكّيتها، وسور متفق على مدنيّتها، وسور مختلف فيها: من العلماء من يرى أنها مدنيّة، ومنهم من يرى أنها مكّية. ومن هذه السور سورة الإنسان.

وقد غلب على السور المكّية الحديث عن الألوهيّة، والتحذير من عبادة الاصنام، والتذكير بالبعث والجزاء، ولفت الانظار إلى مشاهد الكون ونواميسه، وآيات الله في الآفاق، ودلائل القدرة الإلهية في الخلق والنفس.

وغلب على السور المدنيّة وصف غزوات الرسول (ص)، وحالات المجتمع المدنيّ، والحديث عن المنافقين واليهود، والعناية بتشريع الأحكام، ونظام المجتمع ودعائم الحكم السليم.

والقرآن، في مجموعه، كتاب هداية، ودعوة إلى القيم، ومكارم الأخلاق، وحثّ على الإيمان بالله

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ودعوة إلى تهذيب النفس، وحث على الفضيلة والاستقامة، وتقوى الله ومراقبته.

وهذه المعاني نجدها في السور المكّية والمدنيّة، وفي السور المختلف في مكّيتها ومدنيّتها، كسورة الإنسان.

ولا نملك نحن إلاّ أن نقول: سورة الإنسان سورة من القرآن الكريم، يختلف الترجيح في مكّيتها ومدنيّتها، ونرى أنّ أسلوبها أقرب إلى أسلوب القرآن المكّي، وبذلك تكون جميع سُوَرِ جزء ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ سُوَراً مكّية.

تسلسل أفكار السورة

سورة الإنسان نداء رخيّ نَدِيّ للإنسان أن يتذكّر أصله الذي خُلِقَ منه، ويتذكّر فضل الله عليه، إذْ خَلَقَهُ بشراً سوياً، ويَسَّر له طريق الخير والشر، ليختار بإرادته وكسبه، وعقله وطاقاته ومداركه.

وبذلك تذكر السورة أصل الخلق، والمدارك والطاقات التي منحها الله للإنسان، وميّزه بهذا على جميع المخلوقات، فمنحه الإرادة والاختيار، والسمع والبصر، ليسمع ويرى ويفكّر ويتدبّر، ثمّ يختار بإرادته وكسبه؛ وهذه ميزة خاصة بالإنسان وحده في هذا الكون.

فالملاك مطيع طاعة مطلقة، والحيوان مزوّد بالإدراك من دون الاختيار، والكون كله مسخر بمشيئة الله، وخاضع لنواميسه خضوع القهر والغلبة.

والإنسان زُوّد بالعقل ليختار الطاعة لله أو المعصية، وهذا هو أساس الابتلاء والاختبار، فإنْ أطاع صار أهلاً لرضوان الله وجنّته، وإن عَصَى صار أهلاً لغضبه وناره.

وقد ذكرت السورة عذاب أهل النار في آية واحدة، هي الآية الرابعة.

واسترسلت في وصف نعيم أهل الجنة وثوابهم، في الآيات [٥ ـ ٢٢]، أي في جزء كبير من السورة.

ثمّ يتجه الخطاب إلى الرسول الأمين، لتثبيته على الدعوة، وتوجيهه إلى الصبر، وانتظار حكم الله في الأمر، والاتّصال بربّه، والاستمداد منه كلما طال الطريق، وذلك في الآيات [٢٣ ـ ٢٦].

وفي الجزء الأخير من السورة، تذكير للكافرين باليوم الثقيل، الذي لا يحسبون حسابه، والذي يخافه الأبرار ويتقونه، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله الذي خلقهم، ومَنَحَهم ما هم فيه من القوّة، وهو قادر على الذهاب بهم، والاتيان بقوم آخرين، لولا تفضّله عليهم بالبقاء، لتمضي مشيئته في الابتلاء؛ ويلوّح السياق في ختام السورة بعاقبة هذا الابتلاء، وذلك في الآيات [٢٧ ـ ٣١].

مع آيات السورة

[الآية الأولى]: قد أتى على هذا النوع، نوع الإنسان، زمن لم يكن موجوداً حتى يعرف ويذكر.

والحين طائفة من الزمان غير محدودة. وعن ابن عبّاس وابن مسعود: أنّ الإنسان هٰهنا آدم، والحين المحدود، وذلك أنه مكث أربعين سنة طيناً، إلى أن نُفخ فيه الروح فصار شيئاً مذكوراً، بعد كونه كالمنسي[١].

[الآية ٢]: إنا خلقنا الانسان من نطفة اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة، مريدين ابتلاءه واختباره، بالتكليف فيما بعد، إذا شبّ وبلغ الحُلُم، فجعلناه سميعاً بصيراً، ليتمكّن من استماع الآيات، ومشاهدة الدلائل والتعقّل والتفكّر.

ومقصود الآية: نحن نعامل الانسان معاملة المختبر له: أَيَميلُ إلى أصله الأرضي فيكونَ حيواناً نباتيّاً معدنيّاً شهوانيّاً، أم يكون إلٰهيّاً معتبراً بالسمع والبصر والفكر؟

[الآية ٣]: بَيَّن الله للإنسان الطريق السوي، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو بالخيار: إما أن يكون شاكراً لِنَعْماء الله، فيسير في الطريق الواضح المرسوم، وإمّا أن يكون كافراً فيعرض ويكفر، ويختار الضلال على الهدى.

[الآية ٤]: إنّا هيّأنا لمن كفروا بنعمتنا، سلاسل للأقدام، وأغلالاً تُشَدُّ بها أيديهم إلى أعناقهم، كما يفعل بالمجرمين في الدنيا، وناراً تَتَسعَّر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين.

ثمّ تصف الآيات بعد ذلك نعيم المتّقين، وصفاً طويلاً لم نجد مثله في سورة سابقة؛ ويستمر هذا الوصف من

---

(١) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٢٩/١٠٩.

الآيـة الـخـامـسـة إلـى الآيـة الـثـانـيـة والـعـشـريـن، أي ١٨ آية من مجموع آيات السورة وهي ٣١، أي أن أكثر من نصف السورة، يصف نعيم المتقين، وحليّهم وملابسهم وخدمهم، وما هم فيه من نعمة ورضوان وملك كبير. ولنسر مع هذه الآيات التي تصف نعيم المتقين.

[الآيتان ٥ ـ ٦]: إنّ شراب الأبرار في الجنّة ممزوج بالكافور، يشربونه في كأس تُغترف من عين تُفجّر لهم تفجيراً في كثرة ووفرة، وينتفعون بها كما يشاءون، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان، يحبون وصولها إليه.

قال مجاهد: يقودونها حيث شاءوا، وتتبعهم حيث مالوا[١].

[الآية ٧]: كانوا يوفون بالنذر فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات، وما التزموا من الواجبات، أي أنهم يؤدون ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بالنذر. وهم يستشعرون الخشية من يوم القيامة، ذلك يوم شديد عذابه، عظيم خطره، كالنار يتطاير شررها فيعمّ شرّها.

[الآية ٨]: وكانوا يطعمون الطعام، ويقدّمون المعونة النافعة لكلّ مسكين عاجز عن الاكتساب، ولكل يتيم مات كاسبه، ولكل أسير لا يملك لنفسه قوّة ولا حيلة.

[الآية ٩]: وحين يقدّمون الطعام والمعونة النافعة لكلّ مسكين عاجز عن الاكتساب، ولكلّ يتيم مات كاسبه، لا يترفّعون على عباد الله، ولا يشعرون بالاستعلاء والعظمة، بل يقدّمون المعونة في إخلاص وتجرّد لوجه الله، ولا ينتظرون شكراً ولا إعلاناً.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: أمَا والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب[٢].

[الآية ١٠]: لقد أخرجوا الصدقة لوجه الله، ولسان حالهم يقول: إنّا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا، ويتلقّانا بلطفه في يوم عَبُوسٍ تعبس فيه الوجوه، قمطريرٍ شديدِ العبوس.

قال النسفي: «وصف اليوم بصفة

(١) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٢٩/ ١٦٤. وانظر تفسير النسفي ٤/ ٣٣٨.

(٢) تفسير المراغي ٢٩/ ١٦٦.

أهله من الأشقياء، نحو نهارك صائم، والقمطرير شديد العبوس، الذي يجمع ما بين عينيه»[1].

[الآية ١١]: فحفظهم الله من شر ذلك اليوم، وكسا وجوههم نضرة ونضارة، وتنعّماً، وفرحاً، وسروراً.

[الآية ١٢]: وجزاهم بصبرهم على الإيثار، والتزامهم بأمر الله جنّةً يسكنونها، وحريراً يلبسونه.

ثمّ تصف الآيات مساكن أهل الجنة، وشرابهم وأوانيه وسقاته، وما تفضّل به عليهم ربهم، من فاخر اللباس والحلى، وأصناف النعيم فتقول:

[الآية ١٣]: هم في جلسة مريحة مطمئنة، الجو حولهم رخاء ناعم، دافئ في غير حر، نَدِيٌّ في غير برد، فلا شمس تلهب النسائم، ولا زمهرير، أي: لا بردٌ قارس.

[الآية ١٤]: ظلال الجنة قريبة من الأبرار مظلّلة عليهم، وقطوفها وثمارها قريبة دانية في متناول أيديهم، ينالها القائم والقاعد والمتكئ.

[الآيات ١٥ ـ ١٩]: يُطاف عليهم بآنية من فضة بيضاء، في صفاء الزجاج، فيرى ما في باطنها من ظاهرها، ممّا لم تعهده الأرض في آنية الفضة، وهي بأحجام مقدّرة تقديراً، يحقّق المتاع والجمال. ثم هي تُمزج بالزَّنْجبِيل كما مُزجت مرّة بالكافور، وهي كذلك تُملأ من عين جارية تسمى سلسبيلاً، لشدة عذوبتها واستساغتها للشاربين. وزيادة في المتاع، فإن الذين يطوفون بهذه الآواني والأكواب، هم غلمان صِباحُ الوجوه، لا يفعل فيهم الزمن، ولا تدركهم السن، فهم مُخَلَّدون في سن الصَّباحة والصِّبا والوَضاءة، وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور.

[الآية ٢٠]: تحمل هذه الآية خطوط هذا النعيم، وتُلقي عليه نظرة كاملة فاحصة، تلخّص وقعه في القلب والنظر. فاذا نظرتَ في الجنة رأيتَ نعيماً عظيماً، ومُلْكاً كبيراً لا يحيط به الوصف.

[الآية ٢١]: ثم تخصص هذه الآية مظهراً من مظاهر النعيم، والمُلْك الكبير فتقول: إن لباس أهل الجنة السُّندس، وهو الحرير الرقيق،

---

(١) تفسير النسفي ٤/٣٢٨.

والإسْتَبْرَق وهو الحرير السميك المبطن، وقد حُلُّوا أساورَ من فضة؛ وتدرج نعيمهم في الارتقاء إلى مدارج الكمال، حتى ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الآية ٢١] وأضاف السقي إلى ذاته للتشريف والتخصيص، ﴿شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ مبالغة في طهارته ونظافته بخلاف خمر الدنيا. فهو عطاء كريم من مُعْطٍ كريم، وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم.

[الآية ٢٢]: ثم ختم وعدهم بالود والتكريم، فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾. أي يقال لهؤلاء الأبرار هذا القول، زيادة في سرورهم، إنّ هذا الذي أعطيناكم من الكرامة، كان ثواباً على أعمالكم الصالحة، وكان عملكم في الدنيا مشكوراً، حَمِدَكُمْ عليه ربّكم ورَضِيَه لكم، فأثابكم بما أثابكم به من الكرامة.

وهذا النطق من الملأ الأعلى، يعدل هذه المناعم كلّها، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها، لأنّها جزاء على عمل، وثواب لإنسان اختار الهدى والطريق المستقيم والعمل الصالح، فاستحقّ النعيم والتكريم.

[الآية ٢٣]: وبعد أن بيّن الله سبحانه ما في الجنة من نعيم، ذَكّر نبيه بنعمة الرسالة تَسْلِيةً لفؤاده، وحثًا له على الصبر والثبات، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾: إنّ القرآن من عند الله أنزله مُنَجَّماً مفصلاً، في ثلاث وعشرين سنة، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التي تجد في الكون، فتكون تثبيتاً لإيمان المؤمنين وزيادة في تقوى المتقين.

[الآية ٢٤]: اصبر على أمر الله واثبت على الحق، ولا تتّبع أحداً من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم، ولا من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر؛ إنّ الأمور مرهونة بقدر الله، وهو يمهل الباطل ويملي للشر، كلّ أولئك لحكمة يعلمها، يجري بها قدره، وينفذ بها حكمه. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾. ونَهْيُه (ص) عن طاعة الآثم والكفور، وهو لا يطيع واحداً منهما، إشارة إلى أن الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد، لِمَا رُكّب في طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح السيّئات، وأن أحداً لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان

أحقُّ الناس بذلك هو الرسولَ المعصوم (ص).

[الآيتان ٢٥ ـ ٢٦]: ودُمْ على ذكره في الصباح والمساء، والخَلْوَة والجَلْوَة، وصلِّ بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء، واسجد له بالليل وسبِّحه طويلاً، لأنه مصدر القوة والعناية، وينبوع العون والهداية؛ ومن وجد الله وجد كل شيء، فالصلة به سبحانه هي السعادة الكبرى، والعناية العظمى، والزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في طريق الحياة.

[الآية ٢٧]: إنّ هؤلاء المشركين بالله يحبّون الدنيا، وتعجبهم زينتها، وينهمكون في لذّتها الفانية، ويتركون اليوم الثقيل، الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير، بعد الحساب العسير.

والآية تثبيت للنبي (ص) والمؤمنين في مواجهة المشركين، إلى جانب أنّها تهديد ملفوف، لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل.

[الآية ٢٨]: يتلو ذلك التهديد التهوين من أمرهم عند الله جلّ جلاله، الذي أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس، وهو قادر على الذهاب بهم فهم لا يُعجزونه بقوتهم، وهو الذي خلقهم وأعطاهم إيّاها، وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم، فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنّه، وهو قضاؤه وحكمته.

[الآية ٢٩]: إنّ هذه السورة بما فيها من ترتيب بديع، ونسق عجيب، ووعد ووعيد، وترغيب وترهيب، تذكرة وتبصرة لكل ذي عقل وبصيرة. فمن شاء الخير والنجاة لنفسه في الدنيا والآخرة، فليتقرّب إلى ربّه بالطاعة، وليصدّق بالقرآن والرسول الكريم فذلك هو الطريق إلى الله.

[الآية ٣٠]: ويعقب على ذلك بإطلاق المشيئة، وردّ كل شيء إليها، ليكون الاتّجاه الأخير إليها، والاستسلام الأخير لحكمها.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ أي وما تشاؤون اتّخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة، ولا تقدرون على تحصيلها، إلاّ إذا وفّقكم الله لاكتسابها، وأعدكم لنيلها.

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار، المتصرّف القهّار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴿٣٠﴾﴾ بما يصلح العباد، ﴿حَكِيمًا﴿٣٠﴾﴾ وضع كل انسان

في موضعه من الهداية والضلال، فهو يُعين المتقين على القيام بواجبهم، ويسلب عونه عن المشركين، فيتيهون في بيداء الضلال.

[الآيـــــة ٣١]: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ فيَهْديه ويوفّقه للطاعة بحسب استـــعـــداده، ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ۝٣١﴾ وقد أملى لهم وأمهلهم، لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم.

وهذا الختام يلتئم مع المطلع، ويصور نهاية الابتلاء، الذي خلق الله له الانسان من نطفة أمشاج، ووهبه السمع والأبصار، وهداه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار.

مجمل ما تضمنته السورة

اشتملت سورة الإنسان على خمسة مقاصد:

١ ـ خلق الانسان.

٢ ـ جزاء الشاكرين والجاحدين.

٣ ـ وصف النار وصفاً قصيراً في آية واحدة، ووصف الجنّة وصفاً مسهباً في ما يقرب من ١٨ آية.

٤ ـ ذكر المنّة على رسول الله (ص)، وأمره بالصبر وقيام الليل.

٥ ـ المنّة على الخلق بإحكام خلقهم، وإضافة كلّيّة المشيئة إلى الله تعالى.

أسماء السورة

لهذه السورة ثلاثة أسماء:

١ ـ سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ لمفتتحها.

٢ ـ سورة الانسان لقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾.

٣ ـ سورة الدهر لقوله تعالى: ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾.

ترابط الآيات في سورة «الإنسان»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الإنسان بعد سورة الرحمن، وكان نزول سورة الرحمن فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة الإنسان في ذلك التاريخ أيضاً. وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾، وتبلغ آياتها إحدى وثلاثين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة بيان أثر الشرائع في رِفْعَة الإنسان. وقد اقتضى هذا أن يَجْرِي سياقها في شيء من الترغيب والترهيب، فأشبه سياقها بهذا سياق السورة المذكورة قبلها، ولهذا ذُكِرت بعدها.

أثر الشرائع في رفعة الإنسان
الآيات [١ ـ ٣١]

قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾، فَذكر أن الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً قبل أن يرفع شأنه بما أنزله من شرائعه، وأنه، سبحانه، خلقه من نطفة مختلطة بالدم وغيره، ولم يزل ينقله من حال إلى حال حتى جعله سميعاً بصيراً، وأنه، جلّ وعلا، هداه السبيل، فمنهم من اهتدى به ومنهم من كفر به؛ فمن كفر به أَعَدَّ له سَلاسِل وأغلالاً وسعيراً، ومن آمن به يشرب

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

من كأس كان مِزاجها كافوراً الخ. ثم ذكر، تعالى، أنه نزّل القرآن بهذا على النبي (ص)، وأمره أن يصبر لحكمه، ونهاه أن يطيع منهم آثماً أو كفوراً؛ ثم أمره أن يذكره بكرة وأصيلاً، وأن يسجد له جزءاً من أول الليل، ويسبّح بعد هذا ليلاً طويلاً؛ ثم ذكر له أن من نهاه عن طاعتهم يحبون العاجلة ويَنْسَوْن يوماً ثقيلاً؛ وأنه هو الذي خلقهم وشدّ أسْرهم وإذا شاء بدّل أمثالهم تبديلاً؛ ثم ذكر أن هذه السورة تذكرة، فمن شاء اهتدى بها؛ وأنهم لا يشاؤون شيئاً إلاّ أن يشاءه، سبحانه، إنه كان عليماً حكيماً: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الإنسان»(*)

أقول: وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح: فإنه تعالى ذكر في آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثمّ ذكر مثل ذلك في مطلع هذه السورة، مفتتحاً بخلق آدم أبي البشر.

ولمّا ذكر هناك خلقه منهما، قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾. ولما ذكر هناك خلقه منهما، قال هنا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، فعلّق به غير ما علق بالأول، ثمّ رتّب عليه هداية السبيل، وتقسيمه إلى شاكر وكفور، ثمّ أخذ في جزاء كلٍّ.

ووجه آخر: أنّه، لما وصف حال يوم القيامة في تلك السورة، ولم يصف فيها حال النّار والجنّة، بل ذكرهما على سبيل الإجمال، فَصَّلَهما في هذه السورة، وأطنب في وصف الجنّة[1]، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾. وقوله هنا: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾: شرح لقوله هناك: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

وقد ذكر هناك: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ وذكر هنا في هذه السورة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وَصْفُ أحوال المؤمنين في الجنة فُصِّل هنا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ الى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾
وهذا من وجوه المناسبة[٢].

---

(٢) ومن وجوه المناسبة بين سورة الإنسان وسورة القيامة: أنه تعالى فصّل في «القيامة» أحوال الكافرين عند الموت، وما يعانون من قهر وندم، في قوله عز وجلّ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ إلى: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ وفي هذه السورة فصّل أحوال المؤمنين في حياتهم، والتي استوجبوا بها النعيم الموصوف في السورة. وذلك من قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾، إلى ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

مكنونات سورة «الإنسان»(*)

١ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ [الآية ١].

قال قَتَادة: هو آدم (ع). أخرجه ابنُ أبي حاتِم[1].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) والطبري في «تفسيره» ٢٩/ ١٢٥.

لغة التنزيل في سورة «الإنسان»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الآية ٢].

ونمط التركيب في قوله تعالى: ﴿نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ كنمط التركيب في قولهم: برمة أعشار، وبرد أكياش فقد وُصف المفرد بهذه الصفات على «أفعال»، فقالوا: هي ألفاظ مفردة غير جموع. على أنه سُمِع «مَشَج» مفرد أمشاج.

٢ ـ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٦].

أقول: والمعنى يشرب منها، ولا عبرة لما قيل بـ «التضمين» أي: إن الباء تضمنت معنى «من»، وذلك لأن كلام الله جرى على لغة العرب، والعرب قد تصرفت بلغتها تصرفاً واسعاً. ولله حكمة بالغة في وضع كلامه على هيئة لم يدركها البشر.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (١٥) قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾.

أقول: من أجل حسن الأداء وتناسب الفواصل جاءت ﴿قَوَارِيرَا۠ (١٥)﴾ بالمد الناجم عن سقوط التنوين المفترض، فإذا ذهب السبب عادت «قوارير» غير ممدودة.

ومن أجل شيء آخر وردت (سلاسلا) على الصورة التي جاءت عليها «قواريرا» في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا (٤)﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

وذلك ليتناسب قوله سبحانه
﴿سَلَاسِلَا ﴿٤﴾﴾ مع قوله: ﴿وَأَغْلَالًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ فالتناسب مقصود يقتضيه
تجويد الأداء.

المعاني اللغوية في سورة «الإنسان»(*)

قال تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ [الآية ٢] واحدها: «المَشْج».

وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ كذلك ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم/٧٥] بالنصب، كأن السياق لم يذكر «إمّا». وإن شئت ابتدأت ما بعدها فرفعته.

وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٦] بالنصب من ثلاثة أوجه، إن شئت فَعَلَى قوله ﴿يَشْرَبُونَ﴾ [الآية ٥] ﴿عَيْنًا﴾ وإن شئت، فَعَلى ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ ﴿عَيْنًا﴾ [الآية ٦] وإن شئت فعلى وجه المدح، كما يذكر لك الرجل فتقول أنت: «العاقلَ اللبيبَ» أي: ذكرتَ العاقلَ اللبيبَ. على «أَعْنِي عَيْناً».

وقال تعالى: ﴿وَلَا شُكُورًا﴾، إن شئت جعلته جماعة «الشُّكْر» وجعلت «الكُفُور» جماعة «الكُفْر» مثل «الفَلْس» و«الفُلُوس». وإن شئت جعلته مصدراً واحدا في معنى جميع مثل: «قَعَد قُعُوداً» و«خَرَج خُروجا».

وقال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ [الآية ١٣] على المدح، أو على: «جزاهم جَنَّةً مُتَّكِئِينَ فيها» على الحال؛ وقد تقول «جزَاهُم ذلكَ قِياماً»؛ وكذلك ﴿وَدَانِيَةً﴾ [الآية ١٤] على الحال أو على المدح، إنّما انتصابه بفعل مضمر. وقد يجوز في قوله تعالى ﴿وَدَانِيَةً﴾ أن يكون على وجهين على «وجزاهمْ دانيةً ظِلالُها»

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

تقول: «أعطَيْتُكَ جَيْداً طَرَفاهُ» و«رأيْنا حَسَناً وَجْهُهُ».

وقال: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾، بنصب العين على أربعة أوجه على «يُسْقَوْنَ عَيْناً» أو على الحال، أو بدلاً من الكأس، أو على المدح والفعل مضمر. وقال بعضهم إن «سلسبيل» صفة للعين بالسلسبيل. وقال بعضهم: إنّما المراد: «عَيْناً تُسَمّى سَلْسَبِيلاً» أي: تسمى من طِيبِها، أيْ: تُوصَفُ للناسِ كما تقول: الأعوجيّ» و«الأَرْحَبِيّ» و«المَهْرِيّ من الإبل». وكما تنسب الخيل إذا وصفت إلى هذه الخيل المعروفة والمنسوبة، كذلك تنسب العين إلى أنها تسمّى ﴿سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ لأنّ القرآن يدل على كلام العرب. قال الشاعر وأنشَدَنَاهُ يونس[1] هكذا من الكامل وهو الشاهد الرابع والسبعون بعد المئتين:

صَفْراءُ مِنْ نَبْعٍ يُسَمّى سَهْمُها
مِنْ طُولِ ما صَرَعَ الصُيُودَ الصَيِّبُ

فرفع «الصيِّب لأنه لم يرد «يسمى سهمها بالصيِّب» إنما «الصيِّب» من صفة الاسم والسهم. وقوله «يسمى سهمها»: يُذْكَرُ سهمُها. وقال بعضهم: لا بل هو اسم العين، وهو معرفة؛ ولكن لما كان رأسَ آية، وكان مفتوحاً، زيدت فيه الالف كما كانت ﴿قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ [الآية ٢٠] ﴿رَأَيْتَ﴾ لا تتعدى كما يقول: «ظننت في الدار خيرٌ» لمكان ظنه، وأخبر بمكان رؤيته.

(١) هو يونس بن حبيب البصري، وقد مرت ترجمته.

لكل سؤال جواب في سورة «الإنسان»(*)

إنْ قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الآية ٢] فوصف المفرد وهي النطفة بالجمع وهو الأمشاج جمع مَشَج، والأمشاج الأخلاط، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة؟

قلنا: قال الزمخشري رحمة الله تعالى عليه: أمشاج لفظ مفرد لا جمع كقولهم: برمة أعشار، وبيت أكباش، وبر أهدام. وقال غيره الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الآية ٢١] مع أن ذلك في الدنيا إنما هو عادة الإماء، ومن في مرتبتهن؟

قلنا: القرآن أول من خوطب به العرب، وكان من عادة رجالهم ونسائهم التحلي بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين. الثاني: أنّ الاسم، وإن كان مشتركا بين فضة الدنيا والآخرة، ولكن شتان ما بينهما. قال النبي (ص) «المثقال من فضة الآخرة خير من الدنيا وما فيها». وكذا الكلام في السندس والإستبرق وغيرهما مما أعده الله تعالى في الجنّة.

فإن قيل: أيُّ شرف لتلك الدار يسقي الله تعالى عباده الشراب الطهور فيها، مع أنه تعالى في الدنيا سقاهم ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات] وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ [الحجر].

قلنا: المراد به في الآخرة سقيهم بغير واسطة، وشتان ما بين الشرابين والآنيتين أيضاً والمنزلتين.

فإن قيل: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ الضمير لمشركي مكة بلا خلاف، فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور، وكلّهم آثم وكلّهم كفور؟

قلنا: المراد بالآثم عتبة بن ربيعة، فإنه كان ركّاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق؛ والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة، فإنه كان مغالياً في الكفر، شديد الشكيمة فيه؛ مع أن كليهما آثم وكافر، والمراد به نهيه عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة، وموافقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلال.

فإن قيل: ما معنى النهي عن طاعة أحدهما، ولماذا لم يَنْهَ عن طاعتهما؟

قلنا: قال بعضهم: إن «أو» هنا بمعنى الواو، كما في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ [الأنعام/١٤٦]. الثاني: أنه لو قال تعالى: ولا تطعهما، جاز له أن يطيع أحدهما، وأما إذا قيل له ولا تطع أحدهما كان منهيًا عن طاعتهما بالضرورة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾. والابتلاء متأخر عن جعله سميعاً بصيراً؟

قلنا: قال الفرّاء: فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه. وقال غيره: معناه ناقلين له من حال إلى حال: نطفةً ثمّ علقةً ثمّ مضغةً، فسمى ذلك ابتلاءً من باب الاستعارة.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ والقوارير اسم لما يتخذ من الزجاج؟

قلنا: معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضّة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ضربت فضّة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب، لم يُرَ الماء من ورائها. وقوارير الجنّة من فضّة ويرى ما فيها من ورائها.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾﴾؟

قلنا: معناه تكوّنت، فهي من قوله

تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] وكذا قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

فإن قيل: لِمَ شبه الله تعالى الولْدان باللؤلؤ المنثور دون المنظوم؟

قلنا: إنما شَبَّهَهم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنثور لأنه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذي لم يُثْقَب بعد، لأنه إذا ثقب نقصت مائيّته وصفاؤه، واللؤلؤ الذي لم يثقب لا يكون إلاّ منثوراً. وقيل: إنما شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنثور، لأنّ اللؤلؤ المنثور على البساط أحسن منظراً من المنظوم. وقيل إنما شبههم باللؤلؤ المنثور، لانتشارهم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم في الخدمة، بدليل قوله تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية ١٩] ولو كانوا وقوفاً صفًّا لشبهوا بالمنظوم.

فإن: قيل لِمَ قال الله تعالى هنا: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الآية ٢٨] أي خلْقهم، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء/٢٨]؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما والأكثرون: المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية. وقال الزجاج: معناه أنه يغلبه هواه وشهوته، فلذلك وصف بالضعف. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الآية ٢٨] فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها إلى بعض، بالعروق والأعصاب. وقيل المراد بالأسر العُصْعُصُ، فإنّ الإنسان في القبر يصير رفاتاً إلا عُصْعُصَهُ فإنه لا يتفتّت. وقال مجاهد: المراد بالأسر مخرج البول والغائط، فإنه يسترخي حتى يخرج منه الأذى، ثم ينقبض ويجتمع ويشتدّ بقدرة الله تعالى.

المعاني المجازية في سورة «الإنسان»(*)

في قوله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ استعارة. وحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة. يقال: طار الطَّائر، واستطرتُه أنا إذا بعثتُهُ على الطَّيَران. ويقولون أيضاً من ذلك على طريق المجاز: استطار لهيبُ النّار، إذا انتشر وعَلا، وظَهَرَ وفَشا. فكأنه سبحانه قال: يخافون يوماً كان شرُّه فاشياً ظاهراً، وعالياً منتشراً.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ استعارة. لأن «العبوس» من صفة الإنسان القاطب المعبِّس. فشبَّهَ سبحانه ذلك اليوم لقوّة دلائله على عظيم عقابه، وأليم عذابه، بالرجل العَبوس الذي يستدلّ بعبوسه وقُطوبه على إرصاده بالمكروه، وعزمه على إيقاع الأمر المخوف. وأصلُ العُبوس تقبيض الوجه، وهو دليل السخط، وضده الاستبشار والتطلُّق وهما دليلا الرضا والخير.

وكما سمّتِ العربُ اليوم المحمود طَلْقاً، فكذلك سمّتِ اليوم المذموم عَبُوساً. ويقال: يوم قَمْطَرِيرٌ وقُماطر إذا كان شديداً ضرُّه، طويلاً شرُّه.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ استعارة. والمراد بتذليل القطوف، وهي عناقيد الأعناب وواحدها قِطْف[1] أنها جُعلت قريبة من أيديهم، غير ممتنعة على مجانيهم، لا يحتاجون إلى معاناة في

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) القطف بكسر القاف: العنقود ساعة يقطف، أو اسم للثمار المقطوفة. والجمع قُطوف، وقِطاف.

اجتنائها، ولا مشقّة في اهتصار أفنانها، فهي كالظّهر الذلول الذي يوافق صاحبه، ويواتي راكبه.

والتذليل هٰهنا مأخوذ من الذّلّ بكسر الذال، وهو ضد الصعوبة. والذُّل، بضم الذال، ضدُّ العز والحميَّة.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ استعارة. وقد مضى الكلام على نظيرها فيما تقدّم. والمراد باليوم الثقيل هٰهنا: استثقاله من طريق الشدّة والمشقّة، لامن طريق الاعتماد بالأجزاء الثقيلة. وقد يوصف الكلام بالثقيل على هذا الوجه، وهو عَرَضٌ من الأعراض، فيقول القائل: قدْ ثَقُل عليَّ خِطَابُ فلانٍ، وما أثقلَ كلام فلان.

الفهــرس

سورة «التغابن»

المبحث الأول

أهداف سورة «التغابن» ٣

مع السورة ٤

روابط الأسرة ٥

المعنى الإجمالي للسورة ٧

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «التغابن» ٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٩

الغرض منها وترتيبها ٩

الإنذار بعذاب الدنيا والآخرة ٩

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «التغابن» ١١

المبحث الرابع

المعاني اللغوية في سورة «التغابن» ١٣

المبحث الخامس

لكل سؤال جواب في سورة «التغابن» ١٥

المبحث السادس
المعاني المجازية في سورة «التغابن» ـــــــــ ١٧

سورة «الطلاق»

المبحث الأول
أهداف سورة «الطلاق» ـــــــــ ٢١
العناية بالأسرة ـــــــــ ٢١
الطلاق ـــــــــ ٢٢
مع السورة ـــــــــ ٢٤
المعنى الإجمالي للسورة ـــــــــ ٢٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الطلاق» ـــــــــ ٢٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــــ ٢٩
الغرض منها وترتيبها ـــــــــ ٢٩
حكم الطلاق والعدة ـــــــــ ٢٩
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الطلاق» ـــــــــ ٣١
المبحث الرابع
المعاني اللغوية في سورة «الطلاق» ـــــــــ ٣٣
المبحث الخامس
لكل سؤال جواب في سورة «الطلاق» ـــــــــ ٣٥

سورة «التحريم»

المبحث الأول

أهداف سورة «التحريم» ٤١
قصة التحريم ٤٢
تحريم مارية ٤٤
تحريم العسل ٤٤
النبيّ (ص) يهجر نساءه ٤٥
اصطفاء الرسول (ص) ٤٦
مع السورة ٤٧
المعنى الإجمالي للسورة ٤٨

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «التحريم» ٥١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٥١
الغرض منها وترتيبها ٥١
قصة التحريم ٥١

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «التحريم» ٥٣

المبحث الرابع

مكنونات سورة «التحريم» ٥٥

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «التحريم» ٥٧

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «التحريم» ٥٩

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «التحريم» ٦١

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «التحريم» ٦٥

سورة «الملك»

المبحث الأول

أهداف سورة «الملك» ٧١

مطلع السورة ٧١

مع آيات السورة ٧٢

المعنى الإجمالي للسورة ٧٦

أسماء السورة ٧٧

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الملك» ٧٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٧٩

الغرض منها وترتيبها ٧٩

الدعوة الى الإيمان بالله تعالى ٧٩

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الملك» ٨١

المبحث الرابع

لغة التنزيل في سورة «الملك» ٨٣

المبحث الخامس

المعاني اللغوية في سورة «الملك» ٨٥

المبحث السادس
لكل سؤال جواب في سورة «الملك» ٨٧
المبحث السابع
المعاني المجازية في سورة «الملك» ٨٩

سورة «القلم»

المبحث الأول
أهداف سورة «القلم» ٩٥
مع آيات السورة ٩٥
قصة يونس ٩٩
المعنى الإجمالي للسورة ١٠٠
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «القلم» ١٠٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٠٣
الغرض منها وترتيبها ١٠٣
تثبيت النبي (ص) ١٠٣
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «القلم» ١٠٥
المبحث الرابع
مكنونات سورة «القلم» ١٠٧
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «القلم» ١٠٩
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «القلم» ١١١

المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «القلم» ١١٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «القلم» ١١٥

سورة «الحاقة»

المبحث الأول
أهداف سورة «الحاقّة» ١١٩
مع آيات السورة ١١٩
المعنى الإجمالي للسورة ١٢٣
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الحاقّة» ١٢٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٢٥
الغرض منها وترتيبها ١٢٥
إثبات يوم القيامة ١٢٥
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الحاقّة» ١٢٧
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الحاقّة» ١٢٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الحاقّة» ١٣١
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الحاقّة» ١٣٣

المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الحاقّة» ١٣٥
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الحاقّة» ١٣٧

سورة «المعارج»

المبحث الأول
أهداف سورة «المعارج» ١٤٣
تنوع أساليب القرآن ١٤٣
مع آيات السورة ١٤٤
مجمل ما تضمنته السورة ١٤٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «المعارج» ١٤٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٤٧
الغرض منها وترتيبها ١٤٧
بيان قرب العذاب ١٤٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «المعارج» ١٤٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «المعارج» ١٥١
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «المعارج» ١٥٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «المعارج» ١٥٥

المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «المعارج» ١٥٧
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «المعارج» ١٥٩

سورة «نوح»

المبحث الأول
أهداف سورة «نوح» ١٦٣
فكرة السورة ١٦٣
أهداف الرسالات ١٦٣
مع آيات السورة ١٦٤
المعنى الإجمالي للسورة ١٦٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «نوح» ١٦٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٦٧
الغرض منها وترتيبها ١٦٧
قصة نوح ١٦٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «نوح» ١٦٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «نوح» ١٧١
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «نوح» ١٧٣

المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «نوح» ـــــــ ١٧٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «نوح» ـــــــ ١٧٧
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «نوح» ـــــــ ١٧٩

سورة «الجن»

المبحث الأول
أهداف سورة «الجن» ـــــــ ١٨٥
أوهام عن الجن ـــــــ ١٨٥
الجن في القرآن ـــــــ ١٨٦
استماع الجن للقرآن ـــــــ ١٨٧
أسماء السورة ـــــــ ١٨٨
مع آيات السورة ـــــــ ١٨٨
المقصد الإجمالي للسورة ـــــــ ١٩٢
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الجن» ـــــــ ١٩٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــ ١٩٥
الغرض منها وترتيبها ـــــــ ١٩٥
قصة إيمان بعض الجن ـــــــ ١٩٥
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الجن» ـــــــ ١٩٧

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الجن» ١٩٩

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الجن» ٢٠١

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الجن» ٢٠٣

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الجن» ٢٠٥

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الجن» ٢٠٧

سورة «المزمل»

المبحث الأول

أهداف سورة «المزمّل» ٢١١

مع آيات السورة ٢١٢

خلاصة أحكام السورة ٢١٤

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «المزمّل» ٢١٧

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢١٧

الغرض منها وترتيبها ٢١٧

تهيئة النبي (ص) للدعوة ٢١٧

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «المزمّل» ٢١٩

المبحث الرابع
لغة التنزيل في سورة «المزمّل» ٢٢١
المبحث الخامس
المعاني اللغوية في سورة «المزمّل» ٢٢٣
المبحث السادس
لكل سؤال جواب في سورة «المزمّل» ٢٢٥
المبحث السابع
المعاني المجازية في سورة «المزمّل» ٢٢٧

سورة «المدثر»

المبحث الأول
أهداف سورة «المدّثر» ٢٣١
مع آيات السورة ٢٣٣
مقاصد السورة إجمالاً ٢٣٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «المدّثر» ٢٣٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣٧
الغرض منها وترتيبها ٢٣٧
استنهاض النبي (ص) للدعوة ٢٣٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «المدّثر» ٢٣٩
المبحث الرابع
مكنونات سورة «المدّثر» ٢٤١

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «المدَّثِّر» ـــــــــــــــ ٢٤٣

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «المدَّثِّر» ـــــــــــــــ ٢٤٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «المدَّثِّر» ـــــــــــــــ ٢٤٧

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «المدَّثِّر» ـــــــــــــــ ٢٤٩

سورة «القيامة»

المبحث الأول

أهداف سورة «القيامة» ـــــــــــــــ ٢٥٣

مع آيات السورة ـــــــــــــــ ٢٥٤

مقصود السورة ـــــــــــــــ ٢٥٨

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «القيامة» ـــــــــــــــ ٢٥٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــــــــــ ٢٥٩

الغرض منها وترتيبها ـــــــــــــــ ٢٥٩

إثبات البعث ـــــــــــــــ ٢٥٩

المبحث الثالث

مكنونات سورة «القيامة» ـــــــــــــــ ٢٦١

المبحث الرابع

لغة التنزيل في سورة «القيامة» ـــــــــــــــ ٢٦٣

المبحث الخامس

المعاني اللغوية في سورة «القيامة» ـــــ ٢٦٥

المبحث السادس

لكل سؤال جواب في سورة «القيامة» ـــــ ٢٦٧

المبحث السابع

المعاني المجازية في سورة «القيامة» ـــــ ٢٦٩

سورة «الإنسان»

المبحث الأول

أهداف سورة «الإنسان» ـــــ ٢٧٣

تسلسل أفكار السورة ـــــ ٢٧٤

مع آيات السورة ـــــ ٢٧٥

مجمل ما تضمنته السورة ـــــ ٢٨٠

أسماء السورة ـــــ ٢٨٠

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الإنسان» ـــــ ٢٨١

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــ ٢٨١

الغرض منها وترتيبها ـــــ ٢٨١

أثر الشرائع في رفعة الإنسان ـــــ ٢٨١

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الإنسان» ـــــ ٢٨٣

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الإنسان» ـــــ ٢٨٥

المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الإنسان» ــ ٢٨٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الإنسان» ــ ٢٨٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الإنسان» ــ ٢٩١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الإنسان» ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ٢٩٤